تفسير سورة الغاشية من موسوعة التفسير المأثور والتفسير المحرر

التفسير المأثور

مقدمة السورة

٨٢٧٦١ - عن عبد الله بن عباس -من طريق مجاهد- قال: نزلت سورة الغاشية بمكة (١). (١٥/ ٣٨٠)

٨٢٧٦٢ - عن عبد الله بن الزُّبير، مثله (٢). (١٥/ ٣٨٠)

٨٢٧٦٣ - عن عبد الله بن عباس -من طريق عطاء الخُراسانيّ-: مكّيّة، وذكرها بمُسمّى: (هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الغاشِيَةِ)، وأنها نزلت بعد سورة الذاريات (٣). (ز)

٨٢٧٦٤ - عن عكرمة مولى ابن عباس =

٨٢٧٦٥ - والحسن البصري -من طريق يزيد النحوي-: مكّيّة (٤). (ز)

٨٢٧٦٦ - عن قتادة بن دعامة -من طرق-: مكّيّة (٥). (ز)

٨٢٧٦٧ - عن محمد بن مسلم الزُّهريّ: مكّيّة، ونزلت بعد (والذّارِيات) (٦). (ز)

٨٢٧٦٨ - عن علي بن أبي طلحة: مكّيّة (٧). (ز)

٨٢٧٦٩ - قال مقاتل بن سليمان: سورة الغاشية مكّيّة، عددها ست وعشرون آية (٨). (ز)

*****

بسم الله الرحمن الرحيم

(هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ٧)

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ١)

٨٢٧٧٠ - عن عمرو بن ميمون، قال: مَرَّ النبيُّ ﷺ على امرأة تقرأ: (هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الغاشِيَةِ)، فقام يستمع، ويقول: «نعم، قد جاءني» (١). (١٥/ ٣٨٠)

أخرجه ابن أبي حاتم -كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٤٠٦ - مرسلًا.

٨٢٧٧١ - عن عبد الله بن عباس -من طريق علي- قال: الغاشية مِن أسماء يوم القيامة، عظّمه الله، وحذّره عباده (٢). (١٥/ ٣٨٠)

٨٢٧٧٢ - عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية العَوفيّ- في قوله: (هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الغاشِيَةِ)، قال: الساعة (٣). (١٥/ ٣٨١)

٨٢٧٧٣ - عن سعيد بن جُبَير -من طريق أشعث- قال: الغاشية: غاشية النار (٤). (ز)

٨٢٧٧٤ - عن الضَّحّاك بن مُزاحِم، قال: الغاشية: القيامة (٥). (١٥/ ٣٨١)

٨٢٧٧٥ - قال الحسن البصري: (الغاشِيَةِ) يعني: القيامة، تغشى الناسَ بعذابها وعقابها (٦). (ز)

٨٢٧٧٦ - عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- ﴿هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الغاشِيَةِ﴾، قال: حديث الساعة (٧). (١٥/ ٣٨١)

٨٢٧٧٧ - قال مقاتل بن سليمان: ﴿هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الغاشِيَةِ﴾ يعني: قد أتاك حديث أهل النار، وكلّ شيء في القرآن ﴿هَلْ أتاكَ﴾: قد أتاك (١) [٧١٣٩]. (ز)

[٧١٣٩] اختُلف في معنى: ﴿الغاشية﴾ في هذه الآية على قولين: الأول: أنها القيامة تغشى الناس بالأهوال. الثاني: أنها النار تغشى وجوه الكفرة.

وعلَّق ابنُ عطية (٨/ ٥٩٦) على القول الأول بقوله: «يؤيده قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ﴾، والوجوه الخاشعة هي وجوه الكفار، وخشوعها: ذُلُّها وتغيُّرُها بالعذاب». وعلَّق على القول الثاني بقوله: «وقد قال تعالى: ﴿وتَغْشى وُجُوهَهُمُ النّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿ومِن فَوْقِهِمْ غَواشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، فهي تغشى سكانها».

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣٢٧) العموم، فقال: «إن الله قال لنبيّه: ﴿هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الغاشِيَةِ﴾، ولم يُخْبِرنا أنه عَنى غاشية القيامة، ولا أنه عَنى غاشية النار، وكلتاهما غاشيةٌ، هذه تغشى الناس بالبلابل والأهوال والكروب، وهذه تغشى الكفار باللفْح في الوجوه والشُّواظ والنُّحاس، فلا قول أصحُّ في ذلك مِن أن يقال كما قال -جلَّ ثناؤه-، ويُعَمَّ الخبرُ بذلك كما عمَّه».

******

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢﴾

٨٢٧٧٨ - عن سعيد بن جُبَير، (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ)، قال: يعني: في الآخرة (٢). (١٥/ ٣٨٢)

٨٢٧٧٩ - عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ)، قال: خاشعة في النار (٣). (ز)

٨٢٧٨٠ - عن قتادة بن دعامة، (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ)، قال: ذليلة في النار (٤). (١٥/ ٣٨١)

٨٢٧٨١ - قال مقاتل بن سليمان: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ)، يعني: ذليلة (٥). (ز)

*****

(عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ٣)

٨٢٧٨٢ - عن أبي عمران الجَونيّ، قال: مَرَّ عمر بن الخطاب براهبٍ، فوقف، ونودي الراهب، فقيل له: هذا أمير المؤمنين. فاطّلع، فإذا إنسان به مِن الضر والاجتهاد وتَرْك الدنيا، فلمّا رآه عمر بكى، فقيل له: إنه نصراني! فقال عمر: قد علمتُ، ولكني رحِمتُه؛ ذكرتُ قول الله: (عامِلَةٌ ناصِبَةٌ تَصْلى نارًا حامِيَةً)، فرحمتُ نَصَبه واجتهاده، وهو في النار (١). (١٥/ ٣٨٢)

أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٦٨، والحاكم ٢/ ٥٢١ - ٥٢٢. وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

٨٢٧٨٣ - عن عبد الله بن عباس -من طريق عكرمة- (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ عامِلَةٌ ناصِبَةٌ)، قال: يعني: اليهود والنصارى، تخشع ولا ينفعها عملُها (٢). (١٥/ ٣٨٢)

٨٢٧٨٤ - عن عبد الله بن عباس -من طريق علي- (عامِلَةٌ ناصِبَةٌ)، قال: النصارى (٣). (ز)

علقه البخاري في صحيحه ٦/ ١٦٨. وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٧٠٠ أنّ ابن أبي حاتم وصله من طريق علي بن أبي طلحة.

٨٢٧٨٥ - عن عبد الله بن عباس -من طريق أبي الضحى- (عامِلَةٌ ناصِبَةٌ)، قال: الرُّهبان (٤). (ز)

٨٢٧٨٦ - عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية العَوفيّ- في قوله: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ عامِلَةٌ ناصِبَةٌ)، قال: تعمل وتَنصَب في النار (٥) [٧١٤٠]. (١٥/ ٣٨١)

[٧١٤٠] لم يذكر ابنُ جرير (٢٤/ ٣٢٨) في معنى: (عامِلَةٌ ناصِبَةٌ) سوى قول ابن عباس من طريق العَوفيّ، وقول الحسن، وقتادة، وابن زيد.

٨٢٧٨٧ - قال سعيد بن جُبَير =

٨٢٧٨٨ - وزيد بن أسلم: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ عامِلَةٌ ناصِبَةٌ) هم الرُّهبان، وأصحاب الصوامع (٦). (ز)

٨٢٧٨٩ - قال الضَّحّاك بن مُزاحِم: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ عامِلَةٌ ناصِبَةٌ) يُكلّفون ارتقاء جبل مِن حديد في النار (٧). (ز)

تفسير الثعلبي ١٠/ ١٨٧، وتفسير البغوي ٨/ ٤٠٨.

٨٢٧٩٠ - عن عكرمة مولى ابن عباس، في قوله: (عامِلَةٌ ناصِبَةٌ)، قال: عاملة في الدنيا بالمعاصي، تَنصَب في النار يوم القيامة (١) [٧١٤١]. (١٥/ ٣٨٢)

[٧١٤١] اختُلف في معنى: (عامِلَةٌ ناصِبَةٌ) على أقوال: الأول: عاملة في النار ناصبة فيها. الثاني: عاملة في الدنيا ناصبة فيها، والآية في القِسِّيسين، وعباد الأوثان، وكلّ مَن اجتهد في كُفر. الثالث: عاملة في الدنيا ناصبة يوم القيامة.

ووجَّه ابنُ عطية (٨/ ٥٩٦) القول الثالث بقوله: «فالعمل -على هذا- هو مساعي الدنيا».

ورجَّح ابنُ تيمية (٧/ ٥) -مستندًا إلى اللغة، والدلالة العقلية، والنظائر- القول الأول، فقال: «هذا هو الحق لوجوه: أحدها: أنه على هذا التقدير يتعلق الظرف بما يليه، أي: وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة صالية، وعلى الأولى لا يتعلق إلا بقوله: (تصلى)، ويكون قوله: (خاشعة) صفة للوجوه، قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي متعلّق بصفة أخرى متأخرة، والتقدير: وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذٍ تصلى نارًا حامية، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل؛ فالأصل إقرار الكلام على نظْمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه، ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة، أما مع اللبس فلا يجوز؛ لأنه يلتبس على المخاطب، ومعلوم أنه ليس هنا قرينة تدل على التقديم والتأخير، بل القرينة تدل على خلاف ذلك، فإرادة التقديم والتأخير بمثل هذا الخطاب خلاف البيان، وأمْر المخاطب بفهمه تكليف لما لا يطاق.

الوجه الثاني: أنّ الله قد ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في السورة، فقال بعد ذلك: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ لِسَعْيِها راضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ)، ومعلوم أنه إنما وصفها بالنعمة يوم القيامة لا في الدنيا؛ إذ هذا ليس بمدح، فالواجب تشابه الكلام وتناظر القسمين، لا اختلافهما، وحينئذ فيكون الأشقياء وُصفتْ وجوههم بحالها في الآخرة.

الثالث: أنّ نظير هذا التقسيم قوله: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إلى رَبِّها ناظِرَةٌ ووُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ تَظُنُّ أنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ) [القيامة: ٢٢ - ٢٥]، وقوله: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ووُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ تَرْهَقُها قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ) [عبس: ٣٨ - ٤٢]، وهذا كله وصفٌ للوجوه لحالها في الآخرة لا في الدنيا.

الرابع: أنّ وصف الوجوه بالأعمال ليس في القرآن، وإنما في القرآن ذِكْر العلامة، كقوله: (سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ) [الفتح: ٢٩]، وقوله: (ولَوْ نَشاءُ لأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ) [محمد: ٣٠]، وقوله: (وإذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا المُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا) [الحج: ٧٢]، وذلك لأنّ العمل والنَّصَب ليس قائمًا بالوجوه فقط؛ بخلاف السيما والعلامة.

الخامس: أنّ قوله: (خاشِعَةً عامِلَةٌ ناصِبَةٌ) لو جُعل صفة لهم في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم، فإنّ هذا إلى المدح أقرب، وغايته أنه وصفٌ مشترك بين عُبّاد المؤمنين وعُبّاد الكفار، والذم لا يكون بالوصف المشترك، ولو أُريد المختص لقيل: خاشعة للأوثان -مثلًا-، عاملة لغير الله، ناصبة في طاعة الشيطان. وليس في الكلام ما يقتضي كون هذا الوصف مختصًّا بالكفار، ولا كونه مذمومًا، وليس في القرآن ذمٌّ لهذا

الوصف مطلقًا، ولا وعيد عليه، فحمْله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن.

السادس: أنّ هذا الوصف مختص ببعض الكفار، ولا موجب للتخصيص، فإنّ الذين لا يتعبّدون من الكفار أكثر، وعقوبة فُسّاقهم في دينهم أشد في الدنيا والآخرة، فإنّ مَن كفَّ منهم عن المحرمات المتفق عليها، وأدّى الواجبات المتفق عليها لم تكن عقوبته كعقوبة الذين يدعون مع الله إلهًا آخر، ويقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ويَزْنُون. فإذا كان الكفر والعذاب على هذا التقدير في القسم المتروك أكثر وأكبر؛ كان هذا التخصيص عكس الواجب.

السابع: أنّ هذا الخطاب فيه تنفير عن العبادة والنُّسك ابتداء، ثم إذا قُيِّد ذلك بعبادة الكفار والمبتدعة -وليس في الخطاب تقييد- كان هذا سعيًا في إصلاح الخطاب بما لم يُذكر فيه».

٨٢٧٩١ - عن الحسن البصري -من طريق أبي رجاء- أنه قرأ: (عامِلَةٌ ناصِبَةٌ)، قال: لم تعمل لله في الدنيا، فأعْملها في النار (١). (ز)

٨٢٧٩٢ - عن الحسن البصري -من طريق يونس- في قوله تعالى: (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة)، قال: لم تخشع لله في الدنيا فأخْشعها وأنصبها في النار، فذلك عمَلها (٢). (ز)

٨٢٧٩٣ - عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- (عامِلَةٌ ناصِبَةٌ)، قال: تكبّرتْ في الدنيا عن طاعة الله، فأعْملها وأنصبها في النار (٣). (١٥/ ٣٨١)

٨٢٧٩٤ - عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- (عامِلَةٌ ناصِبَةٌ)، قال: عاملة ناصبة في النار (٤). (ز)

٨٢٧٩٥ - قال محمد بن السّائِب الكلبي: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ عامِلَةٌ ناصِبَةٌ) يُجَرُّون على وجوههم في النار (٥). (ز)

٨٢٧٩٦ - قال مقاتل بن سليمان: (عامِلَةٌ ناصِبَةٌ) يعني: عاملة في النار، النار تأكله ويأكل مِن النار، يعني: ناصبة للعذاب صاغِرة (١). (ز)

٨٢٧٩٧ - قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- في قوله: (عامِلَةٌ ناصِبَةٌ)، قال: لا أحد أنصب ولا أشدّ مِن أهل النار (٢). (ز)

*****

(تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ٤)

٨٢٧٩٨ - قال عبد الله بن مسعود: (تَصْلى نارًا حامِيَةً) تخوض في النار كما تخوض الإبل في الوَحْل (٣). (ز)

تفسير الثعلبي ١٠/ ١٨٨، وتفسير البغوي ٨/ ٤٠٤.

٨٢٧٩٩ - عن عبد الله بن عباس، في قوله: (تَصْلى نارًا حامِيَةً)، قال: حارّة (٤). (١٥/ ٣٨٢)

*****

(تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ٥)

٨٢٨٠٠ - عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية العَوفيّ- في قوله: (تُسْقى مِن عَيْنٍ آنِيَةٍ)، قال: هي التي قد طال أنْيُها (٥). (١٥/ ٣٨١)

٨٢٨٠١ - عن عبد الله بن عباس، (تُسْقى مِن عَيْنٍ آنِيَةٍ)، قال: قد أنى غليانها (٦). (١٥/ ٣٨٢)

٨٢٨٠٢ - عن عبد الله بن عباس، (تُسْقى مِن عَيْنٍ آنِيَةٍ)، قال: انتهى حرُّها (٧). (١٥/ ٣٨٢)

٨٢٨٠٣ - عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- في قوله: (مِن عَيْنٍ آنِيَةٍ)، قال: قد بلغتْ إناها، وحان شُربها (٨). (١٥/ ٣٨٣)

٨٢٨٠٤ - عن الحسن البصري -من طريق معمر- (مِن عَيْنٍ آنِيَةٍ)، قال: قد أنى حرّها (٩). (١٥/ ٣٨٣)

٨٢٨٠٥ - عن الحسن البصري -من طريق أبي رجاء- (مِن عَيْنٍ آنِيَةٍ)، قال: قد آن طبخُها منذ خلق الله السماوات والأرض (١). (١٥/ ٣٨٣)

٨٢٨٠٦ - عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- (تُسْقى مِن عَيْنٍ آنِيَةٍ)، قال: أنى طبخها منذ خلق الله السماوات والأرض (٢). (١٥/ ٣٨١)

٨٢٨٠٧ - عن إسماعيل السُّدِّيّ، (مِن عَيْنٍ آنِيَةٍ)، قال: انتهى حرُّها، فليس فوقه حرّ (٣). (١٥/ ٣٨٣)

٨٢٨٠٨ - قال مقاتل بن سليمان: (تُسْقى مِن عَيْنٍ آنِيَةٍ) مِن عينٍ قد انتهى حرُّها، وذلك أنّ جهنم تُسَعَّر عليهم منذ يوم خُلقتْ إلى يوم يدخلونها، وهي عينٌ تخرج مِن أصل جبل طولها مسيرة سبعين عامًا، ماؤها أسود كدرديّ الزيت، كدرٌ غليظ، كثير الدعاميص (٤)، تسقيه الملائكة بإناء مِن حديد مِن نار، فيشربه، فإذا قرّب الإناء مِن فِيه أحرق شدقيه، وتناثرتْ أنيابُه وأضراسُه، فإذا بلغ صدره نضج قلبه، فإذا بلغ بطنه غلى كما يغلي الحميم

مِن شدة الحرّ حتى يذوب كما يذوب الرصاص إذا أصابه النار، فيدعو الشقيُّ بالويل (٥). (ز)

٨٢٨٠٩ - عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- في قوله: {آنِيَةٍ}، قال: حاضرة (٦) [٧١٤٢]. (١٥/ ٣٨٣)

[٧١٤٢] علَّق ابنُ عطية (٨/ ٥٩٧) على قول ابن زيد بقوله: «من قولهم: أنى الشيءُ: إذا حضر».

*****

{لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧}

٨٢٨١٠ - عن أبي الدّرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُلقى على أهل النار الجوعُ، حتى يعدل ما هم فيه مِن العذاب، فيستغيثون بالطعام، فيُغاثون بطعام مِن ضريع، لا يُسمن ولا يُغني مِن جوع» (١). (١٥/ ٣٨٤)

أخرجه الترمذي ٤/ ٥٤١ - ٥٤٣ (٢٧٦٨) مطولًا، وابن جرير ١٧/ ١٢٣ - ١٢٤، والثعلبي ٨/ ٣٤٥.

قال الترمذي: «قال عبد الله بن عبد الرحمن -يعني الدارمي-: والناس لا يرفعون هذا الحديث، إنما روي هذا الحديث عن الأعمش، عن شِمْر بن عطية، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أُمّ الدّرداء، عن أبي الدّرداء قولَه، وليس بمرفوع، وقطبة بن عبد العزيز هو ثقة عند أهل الحديث». وذكر الدارقطني في العلل ٦/ ٢٢٠ (١٠٨٦) الاختلاف في أسانيده، بين إرساله وإسناده، وبين رفعه ووقفه، وأنّ وقفه مسندًا موقوفًا أصح من غيره.

٨٢٨١١ - عن عبد الله بن عباس، (لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَرِيعٍ)، قال: قال رسول الله ﷺ: «شيء يكون في النار شبه الشوك، أمرّ مِن الصبر، وأنتن مِن الجِيفة، وأشدّ حرًّا مِن النار، سمّاه الله: الضريع، إذا طعمه صاحبه لا يدخل البطن، ولا يرتفع إلى الفم، فيبقى بين ذلك، ولا يُغني من جوع» (٢). (١٥/ ٣٨٥)

أخرجه الواحدي في التفسير الوسيط ٤/ ٤٧٤ (١٣٣٧) مختصرًا. وأورده الديلمي في الفردوس ٢/ ٤٣٤ (٣٩٠٥) واللفظ له، والثعلبي ١٠/ ١٨٨. وعزاه السيوطي إلى ابن مردويه.

قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢٠/ ١٥٧: «وهذا حديث غريب جدًّا». وقال السيوطي: «بسند واهٍ».

٨٢٨١٢ - قال أبو الدّرداء =

٨٢٨١٣ - والحسن البصري: إنّ الله تعالى يُرسل على أهل النار الجوع، حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون، فيُغاثون مِن الضّريع، ثم يستغيثون، فيُغاثون بطعام ذا غُصّة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالماء، فيستسقون، فيُعطشهم ألف سنة، ثم يُسقون من عين آنية، شَربةً لا هنيئة ولا مريئة، فإذا أدنوه من وجوههم سلخ جلود وجوههم وشواها، فإذا وصل إلى بطونهم قطعها، فذلك قوله عز جل: (وسُقُوا ماءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أمْعاءَهُمْ) [محمد: ١٥] (٣). (ز)

تفسير الثعلبي ١٠/ ١٨٨، وتفسير البغوي ٨/ ٤٠٨.

٨٢٨١٤ - عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية العَوفيّ- في قوله: (لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَرِيعٍ)، قال: الشِّبرِق (٤). (١٥/ ٣٨١)
أخرجه ابن جرير ٢٤/ ٣٣١. والشِّبرِق: نبت حجازي يؤكل وله شوك، وإذا يبس سُمّي الضريع. النهاية (شبرق).

٨٢٨١٥ - عن عبد الله بن عباس -من طريق علي- (لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَرِيعٍ)، يقول: مِن شجر مِن نار (١). (١٥/ ٣٨٢)
٨٢٨١٦ - عن عبد الله بن عباس، (لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَرِيعٍ)، قال: الشِّبرِق اليابس (٢). (١٥/ ٣٨٣)
٨٢٨١٧ - عن عبد الله بن عباس -من طريق عطاء- (لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَرِيعٍ): هو شيء يطرحه البحر المالح، يُسمِّيه أهل اليمن: الضريع (٣). (ز)
٨٢٨١٨ - عن أبي الجَوْزاء -من طريق عمرو بن مالك- قال: الضريع: السُّلّاء، وهو الشوك، وكيف يَسمَن مَن كان طعامه الشوك؟! (٤). (١٥/ ٣٨٤)
عزاه السيوطي إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. وفي مصنف ابن أبي شيبة في (ت: محمد عوامة) ١٩/ ٤٨٨ - ٤٨٩ (٣٦٨٠٧) بلفظ: «السلم»، وهو كذلك في بعض نسخ الدر المنثور. والسَّلَم نوع من العضاه وهو كلّ شجر له شوك. أما السُّلّاء: فشوك النخل، واحدتها سلاءة. اللسان (سلأ، سلم، عضه).

٨٢٨١٩ - عن سعيد بن جُبَير -من طريق جعفر- (إلّا مِن ضَرِيعٍ)، قال: مِن حجارة (٥). (١٥/ ٣٨٤)

٨٢٨٢٠ - عن سعيد بن جُبَير، (إلّا مِن ضَرِيعٍ)، قال: الزّقوم (٦) [٧١٤٣]. (١٥/ ٣٨٤)

[٧١٤٣] وجَّه ابنُ عطية (٨/ ٥٩٧) قول سعيد بن جُبَير بقوله: «لأنّ الله تعالى قد أخبر في هذه الآية أنّ الكفار لا طعام لهم إلا مِن ضَرِيعٍ، وقد أخبر أنّ الزّقوم طعام الأثيم، فذلك يقتضي أنّ الضّريع: الزّقوم».

٨٢٨٢١ - عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- في قوله: (إلّا مِن ضَرِيعٍ)، قال: الشِّبرِق اليابس (٧). (١٥/ ٣٨٣)

٨٢٨٢٢ - عن عكرمة مولى ابن عباس -من طريق عبد الرحمن الأصبهاني- في قوله: (إلّا مِن ضَرِيعٍ)، قال: الشِّبرِق (٨). (١٥/ ٣٨٢)

٨٢٨٢٣ - عن عكرمة مولى ابن عباس -من طريق رجل من عبد القيس- قال: الضّريع: الشِّبرِق؛ شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض، فإذا كان الربيع سمّتها قريش: الشِّبرِق، فإذا هاج العود سمّتها: الضّريع (١). (١٥/ ٣٨٤)

٨٢٨٢٤ - عن قتادة بن دعامة، قال: الضّريع بلغة قريش في الربيع: الشِّبرِق، وفي الصيف: الضّريع (٢). (١٥/ ٣٨٤)

٨٢٨٢٥ - عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- (لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَرِيعٍ)، قال: هو الشِّبرِق، إذا يبس يُسمّى: الضّريع (٣). (١٥/ ٣٨١)

٨٢٨٢٦ - عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- (لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَرِيعٍ)، قال: مِن شرّ الطعام، وأبشعه، وأخبثه (٤). (١٥/ ٣٨١)

أخرجه ابن جرير ٢٤/ ٣٣٢. وعزاه السيوطي إلى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم بلفظ: الشّبرِق، شر الطعام وأبشعه وأخبثه.

٨٢٨٢٧ - عن عطاء الخُراسانيّ -من طريق يونس بن يزيد- في قول الله □: (طعام إلا من ضريع)، قال: شجرة يقال لها: الشِّبرِق (٥). (ز)

٨٢٨٢٨ - قال محمد بن السّائِب الكلبي: (لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَرِيعٍ) نبْتٌ يَنبت في الربيع، فإذا كان في الصيف يبس؛ فاسمه إذا كان عليه ورقه: شِبرِق، وإذا تساقط ورقه فهو: الضّريع، فالإبل تأكله أخضر، فإذا يبس لم تذقه (٦). (ز)

٨٢٨٢٩ - قال مقاتل بن سليمان: (لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَرِيعٍ) وهي شجرة تكون بمكة كثيرة الشوك، لا تَقربها دابة في الأرض مِن شوكها، ولا يستطيع أحد أن يمسّها مِن كثرة شوكها، وتُسمّيها قريش وهي رطبة في الربيع: الشِّبرِق، وتصيب الإبل من ورقها في الربيع ما دامت رطبة، فإذا يبستْ لم تَقربها الإبل، وما من دابة في الأرض من الهوام والسباع وما يؤذي بني آدم إلا مثلها في النار، سلّطها الله □ على أهلها، لكنها مِن نار، وما خلق الله شيئًا في النار إلا من النار، (لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِن جُوعٍ) فإنهم لا يطعمون مِن أجل الجوع، وإنما من أجل العذاب (٧). (ز)

٨٢٨٣٠ - عن شريك بن عبد الله -من طريق محمد بن عبيد- في قوله: (لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَرِيعٍ)، قال: الشِّبرِق (١). (ز)

٨٢٨٣١ - قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- في قوله: (لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلّا مِن ضَرِيعٍ)، قال: الضّريع: الشوك من النار.

قال: وأما في الدنيا فإنّ الضّريع: الشوك اليابس الذي ليس له ورق، تدعوه العرب: الضّريع، وهو في الآخرة شوك من نار (٢) [٧١٤٤]. (ز)
[٧١٤٤] زاد ابنُ عطية (٨/ ٥٩٨ - ٥٩٩) في معنى الآية أقوالًا أخرى، وعلَّق على بعضها، فقال: «وقيل: الضريع: العِشْرِقُ. وقال النبي ﷺ: «الضريع شوك في النار». وقال بعض اللغويين: الضريع يَبِسُ العَرْفَج إذا تحطّم. وقال آخرون: هو رَطْبُ العَرْفج. وقال الزَّجّاج: هو نَبْتٌ كالعَوْسج. وقال بعض المفسرين: الضّريع نبتٌ في البحر أخضر منتن مُجَوَّف مستطيل له نَوْر فيه كبير ... وكلّ مَن ذَكر شيئًا مما قدمناه فإنما يعني أنّ ذلك من نار ولا بُدّ، وكلّ ما في النار فهو نار. وقال قوم: ضَرِيع وادٍ في جهنم. وقال جماعة من المتأولين: الضّريعُ طعام أهل النار. ولم يُرِد أن يخصص شيئًا مما ذُكِر، قال بعض اللغويين: وهذا مما لا تعرفه العرب. وقيل: الضّريع: الجلدة التي على العظم تحت اللحم». ثم علَّق بقوله: «ولا أعرف مَن تأوَّل الآية بهذا، وأهل هذه الأقاويل يقولون: الزّقوم لطائفة، والضّريع لطائفة، والغِسْلين لطائفة».

التفسير المحرر

مقدمات السورة وتفسير الآيات

أسماء السورة:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الغاشِيةِ). سُمِّيَت سورةَ الغاشيةِ لوُقوعِ لفظِ الغاشيةِ في أوَّلِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/516)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/293).

وسُمِّيت أيضًا بسُورةِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ؛ فعن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رضيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في صلاةِ الجُمُعةِ بـ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)) .
وعنه أيضًا: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في العيدَينِ بـ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)) .

<u>فضائل السورة وخصائصها:</u>

كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صَلاتَيِ الجُمُعةِ والعِيدِ.
فعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في العِيدَينِ، وفي الجُمُعةِ بـ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ، قال: وإذا اجتمَع العيدُ والجُمُعةُ في يومٍ واحدٍ يَقرَأُ بهما أيضًا في الصَّلاتَينِ)) .
وتقدَّمَ حديثَا سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

<u>بيان المكي والمدني</u>:

سورةُ الغاشيةِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ .

<u>مقاصد السورة:</u>

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ: بيانُ أحوالِ الكافِرينَ والمؤمنينَ يومَ القيامةِ .

موضوعات السورة:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- ذِكرُ جزاءِ الكافِرينَ والمُؤمنينَ يومَ القيامةِ.

2- ذِكرُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ في خَلْقِه.

3- أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّذكيرِ، وتهديدُ المُشرِكينَ المُعرِضينَ بالعَذابِ.

4- تقريرُ وُقوعِ البَعْثِ والحِسابِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

(هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١ ۝ وُجُوه□ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ ۝ عَامِلَة□ نَّاصِبَة□ ٣ ۝ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَة□ ٤ ۝ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَة□ ٥ ۝ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيع□ ٦ ۝ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِى مِن جُوع□ ٧ ۝)

غريب الكلمات:

الْغَاشِيَةِ: هي القيامةُ تَغْشى النَّاسَ بالأهوالِ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ .

نَاصِبَةٌ: تَعمَلُ ما تتعَبُ به، ومعنى النَّصَبِ: الدُّؤوبُ في العَمَلِ بالتَّعَبِ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ وإهدافٍ في استواءٍ .

تَصْلَى: أي: تدخُلُ النَّارَ وتذُوقُ حَرَّها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ .

آَنِيَةٍ: أي: بالِغةِ الحرارةِ قد انتهَى غَلَيانُها، وأصلُ (أني): يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ .

ضَرِيعٍ: أي: نبتٍ ذي شَوكٍ هو أخبَثُ الطَّعامِ وأبشَعُه .

المعنى الإجمالي:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال له: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ القيامةِ الَّتي تَغشى النَّاسَ بأهوالِها وشَدائِدِها؟

ثمَّ فصَّل الله تعالى أحوالَ النَّاسِ في ذلك اليومِ، فقال: في ذلك اليومِ تكونُ وُجوهٌ ذَليلةً، يَعمَلُ أصحابُها أعمالًا شاقَّةً مُرهِقةً، يَدخُلونَ نارًا شَديدةَ الحرارةِ، ويُسقَونَ مِن شَرابِ عَينٍ في غايةِ الحَرارةِ، ليس لهم طَعامٌ إلَّا شَجَرٌ يابِسٌ ذو شَوكٍ، لا يُسمِنُ هذا الضَّريعُ آكِلِيه، ولا يَدفَعُ عنهم شيئًا مِن ألَمِ الجُوعِ!

تفسير الآيات:

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1).

أي: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ القيامةِ الَّتي تَغشى النَّاسَ بأهوالِها وشَدائِدِها ؟

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/326)، ((الوسيط)) للواحدي (4/473)، ((تفسير ابن عطية)) (5/472)، ((تفسير ابن كثير)) (8/384)، ((تفسير أبي السعود)) (9/148)، ((تفسير السعدي)) (ص: 921). قال ابنُ عثيمين: (يجوزُ أن يكونَ الخِطابُ مُوَجَّهًا للرَّسولِ صلَّى

اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم وَحْدَه، وأمَّتُه تَبعٌ له، ويجوزُ أن يكونَ عامًّا لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 171).

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا هَوَّل أمْرَها بانبهامِها وعُمومِها، زاد في التَّهويلِ بما ذَكَر مِن أحوالِها في تفصيلِ النَّاسِ إلى شَقيٍّ وسعيدٍ، وبدأ بالشَّقِيِّ؛ لأنَّ المقامَ لإنذارِ المؤثِرينَ للحياةِ الدُّنيا .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2).

أي: تكونُ وُجوهٌ يومَ القيامةِ ذَليلةً .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/327)، ((تفسير ابن عطية)) (5/472)، ((تفسير ابن كثير)) (8/384)، ((تفسير السعدي)) (ص: 922). قال البِقاعي: (أي: ذَليلةٌ مُخبِتةٌ مِنَ الخَجَلِ والفضيحةِ والخَوفِ والحَسْرةِ الَّتي لا تنفَعُ في مِثْلِ هذا الوَقتِ). ((نظم الدرر)) (22/3).

عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3).

أي: يَعمَلُ أصحابُها أعمالًا شاقَّةً مُجهِدةً مُرهِقةً .

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (2/476)، ((تفسير ابن كثير)) (8/384). ذهب أكثَرُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ ذلك واقعٌ يومَ القيامةِ، فيُكَلَّفونَ بجَرِّ السَّلاسِلِ والأغلالِ، أو غيرِ ذلك مِن الأعمالِ الشَّاقَّةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ تيميَّةَ، والبِقاعي، والسعديُّ، وابن عثيمين. يُنظر:

((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (16/217)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (22/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 922)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 172). وممَّن قال مِن السَّلفِ في الجملةِ إنَّ هذا العملَ والنَّصَبَ في النَّارِ والعذابِ يومَ القيامةِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/328)، ((تفسير الثعلبي)) (10/187)، ((البسيط)) للواحدي (23/457). وقيل: يكونُ ذلك في الدُّنيا. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: مكِّيٌّ، والقرطبي، وابن عادل. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (12/8217)، ((تفسير القرطبي)) (20/26)، ((تفسير ابن عادل)) (20/290). وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وزَيدُ ابنُ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (10/187)، ((البسيط)) للواحدي (23/457). قال القرطبي: (ثمَّ قال: عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ فهذا في الدُّنيا؛ لأنَّ الآخِرةَ ليست دارَ عَمَلٍ. فالمعنى: وُجوهٌ عامِلةٌ ناصِبةٌ في الدُّنيا، خاشِعةٌ في الآخرةِ). ((تفسير القرطبي)) (20/26). وقال البِقاعي: (ويجوزُ أن يُرادَ بها الَّذين تَعِبوا ونَصَبوا في الدُّنيا أجسامَهم وهم على غيرِ دِينِ الإسلامِ، كالرُّهبانِ مِنَ النَّصارى بعدَ النَّسخِ، وزنادقةِ المتصَوِّفةِ مِنَ الفلاسِفةِ وأتْباعِهم). ((نظم الدرر)) (22/3، 4). وقال القاسمي: (... وجُوِّزَ أن يكونَ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ إشارةً إلى عَمَلِهم في الدُّنيا، أي: عَمِلَت ونَصِبَت في أعمالٍ لا تُجْدي عليها في الآخِرةِ، فيكونُ بمنزلةِ: حابطةٌ أعمالُها، أو جُعِلَت أعمالُها هباءً مَنثورًا، كما يدُلُّ عليه آياتٌ أُخَرُ، ويؤيِّدُه مقابلةُ هذه الآيةِ لِقَولِه في أهلِ الجنَّةِ: لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ [الغاشية: 9] ، وذلك السَّعيُ هو الَّذي كان في

الدُّنيا. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير القاسمي)) (9/460-461). وقال السمعاني: (وقَولُه: عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ أي: عَمِلَت في الدُّنيا لغيرِ اللهِ، فنَصِبَت وتَعِبَت في الآخِرةِ بعَذابِ اللهِ). ((تفسير السمعاني)) (6/212). وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عِكْرِمةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (10/187)، ((البسيط)) للواحدي (23/459)، ((تفسير ابن كثير)) (8/385).

تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أن وَصَفَهم تعالى بهذه الصِّفاتِ الثَّلاثةِ؛ شَرَح بعدَ ذلك كيفيَّةَ مَكانِهم ومَشرَبِهم ومَطعَمِهم .

تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4).

أي: يَدخُلونَ نارًا مُتوَقِّدةً شَديدةَ الحرارةِ .

تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ (5).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى مكانَهم؛ ذَكَر شَرابَهم .

وأيضًا لَمَّا كان مَن في الحَرِّ أحوَجَ شَيءٍ إلى ما يُبَرِّدُ باطِنَه، قال :

تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ (5).

أي: يُسقَونَ مِن شَرابِ عَينٍ في غايةِ الحَرارةِ .

كما قال تعالى: هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنٍ [الرحمن: 43-44].

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6).

<u>مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:</u>

لَمَّا ذَكَر شَرابَهم؛ ذَكَر طَعامَهم .

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6).

أي: ليس لهم طَعامٌ إلَّا شَجَرٌ يابِسٌ ذو شَوكٍ .

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7).

<u>مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:</u>

لَمَّا حَصَر أكْلَهم في هذا، وكان الضَّريعُ المعروفُ عِندَ العَرَبِ قد يَتصَوَّرُ متصَوِّرٌ أنَّه لو أُكرِهَ شَيءٌ على أكْلِه أسمنَهَ أو سَدَّ جَوعتَه؛ نفى عنه فائدةَ الطَّعامِ .

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7).

أي: لا يَعودُ هذا الضَّريعُ على آكِلِيه بسِمَنٍ يُصلِحُ أجسادَهم، ولا يَدفَعُ عنهم شيئًا مِن ألَمِ الجُوعِ؛ فليس مِن وَرائِه سِوى الضَّرَرِ المحْضِ !

<u>الفوائد العلمية واللطائف:</u>

1- في قَولِه تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ إلى قَولِه: لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ دَليلٌ على اختصارِ الكلامِ، والإشارةِ إلى المعنى؛ لأنَّ الغاشيةَ -واللهُ أعلمُ- هي القيامةُ، فلَمْ يَذْكُرْ يَومَها واقتصرَ على فِعْلِها، ثُمَّ قال: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ، فذَكَر الوُجوهَ وحْدَها، وهي لا تكونُ مُنفَرِدةً عن الأجسامِ بهذه الأوصافِ إلَّا بمُشارَكَتِها، ثُمَّ قال: تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً، وهي لا تَصْلاه وَحْدَها، ثُمَّ قال: تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ وإنَّما تُسْقَى البُطونُ، فأَخْبَرَ بكلِّ ذلك عن الوُجوهِ؛ لأنَّها غُرَّةُ الأبدانِ، وأرفَعُ شيءٍ في الأجسادِ. واللهُ أعلمُ. وكذلك الوُجوهُ الأُخَرُ الَّتي وَصَفَها بالنَّاعمةِ، وهي تُنَعَّمُ مع أبدانِها ولا تَنْفَرِدُ بنَعيمِها، وتكونُ مع الأبدانِ في الجَنَّةِ العاليةِ، ولَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً إلى آذانِها، فنَسَبَ كلَّ ذلك إليها اختصارًا، وفَصاحةً، وإشارةً إلى المعاني المفهومةِ عندَ العربِ الَّذين نَزَلَ القرآنُ بلُغَتِهم .

2- في قَولِه تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ أنَّ إسنادَ صِفاتِ الذَّاتِ لبَعضِ أجزائِها هو مِن أساليبِ اللُّغةِ العَربيَّةِ، وكإسنادِ الكَذِبِ والخَطيئةِ إلى النَّاصيةِ في قَولِه تعالى: نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ [العلق: 16] .

3- في قَولِه تعالى: تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ سُؤالٌ: كيف تكونُ هذه العَينُ في نارِ جهنَّمَ، والعادةُ أنَّ الماءَ يُطفئُ النَّارَ؟!

الجوابُ:

أوَّلًا: أنَّ أمورَ الآخرةِ لا تُقاسُ بأمورِ الدُّنيا، لو أنَّها قِيسَتْ بأُمورِ الدُّنيا ما استطَعْنا أنْ نَتَصَوَّرَ كيف يكونُ، ألَيستِ الشَّمسُ تدنو يومَ القيامةِ مِن رُؤوسِ النَّاسِ على قَدْرِ مِيلٍ؟ -والميلُ إمَّا مِيلُ الْمُكْحُلةِ، وهو نصفُ

الإصبَعِ، أو مِيلُ المسافةِ: كيلو وثُلُثٌ أو نحوُ ذلك-، وحتَّى لو كان كذلك فإنَّه لو كانتِ الآخرةُ كالدُّنيا لَشَوَتِ النَّاسَ شيًّا، لكنَّ الآخرةَ لا تُقاسُ بالدُّنيا، أيضًا يُحْشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ في مكانٍ واحدٍ؛ منهم مَن هو في ظُلمةٍ شديدةٍ، ومنهم مَن هو في نُورٍ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ [التحريم: 8] ، يُحشَرونَ في مكانٍ واحدٍ ويَعرَقونَ؛ فمِنهم مَن يَصِلُ العَرَقُ إلى كَعْبِه، ومنهم مَن يَصِلُ إلى رُكبَتَيه، ومنهم مَن يَصِلُ إلى حِقْوَيه، ومع ذلك هم في مكانٍ واحدٍ. إذَن أحوالُ الآخرةِ لا يجوزُ أنْ تُقاسَ بأحوالِ الدُّنيا.

ثانيًا: أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ها نحن الآن نَجِدُ أنَّ الشَّجَرَ الأخضرَ تُوقدُ منه النَّارُ، كما قال تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ [يس: 80] ، الشَّجرُ الأخضَرُ رَطْبٌ، ومع ذلك إذا ضُرِبَ بعضُه ببعضٍ أو ضُرِبَ بالزَّندِ انقدَحَ وخَرَجَ منه نارٌ حارَّةٌ يابِسةٌ، وهو رَطْبٌ بارِدٌ؛ فاللهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ، فهم يُسقَونَ مِن عَينٍ آنيةٍ في النَّارِ، ولا يتنافى ذلك مع قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ .

4- في قَولِه تعالى: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ سُؤالٌ: كيف يُوجَدُ النَّبتُ في النَّارِ؟

الجوابُ: لِمَ لا يجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ النَّبتَ يُوجَدُ في النَّارِ؟! فإنَّه لَمَّا لم يُستبعَدْ بَقاءُ بَدَنِ الإنسانِ -مع كَونِه لحمًا ودَمًا- في النَّارِ أبَدَ الآبادِ، فكذا هاهنا، وكذا القَولُ في سلاسِلِ النَّارِ وأغلالِها، وعَقارِبِها وحَيَّاتِها .

5- في قَولِه تعالى: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ سُؤالٌ: أنَّ هذا يُعارِضُ قولَه تعالى في الآيةِ الأُخرى: وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ [الحاقة: 36] .

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأول: أنَّ الاختِلافَ بحَسَبِ مَن يَطْعَمُ مِن أهلِ النَّارِ؛ فمَنِ اتَّصَفَ بالصِّفةِ الأُولى فطَعَامُه مِن غِسْلينٍ، ومَنِ اتَّصَفَ بالثَّانيةِ فطعامُه مِن ضَريعٍ ، فالعذابُ ألوانٌ، والمعَذَّبونَ طَبَقاتٌ؛ فمِنهم مَن لا طعامَ له إلَّا مِن غِسْلينٍ، ومنهم مَن لا طعامَ له إلَّا مِن ضَريعٍ، ومنهم مَن لا طعامَ له إلَّا الزَّقُّومُ، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ [الحجر: 44] .

الثَّاني: أن يكونَ أحَدُهما في حالٍ، والآخَرُ في حالٍ .

الثَّالِثُ: أنَّ المعنى أنَّهم لا طعامَ لهم أصلًا؛ لأنَّ الضَّريعَ لا يَصدُقُ عليه اسمُ الطَّعامِ، ولا تأكُلُه البَهائِمُ، فأحرى الآدَميُّونَ! وكذلك الغِسلِينُ ليس مِنَ الطَّعامِ، فمَن طَعامُه الضَّريعُ لا طَعامَ له، ومَن طَعامُه الغِسلينُ كذلك. ومنه قَولُهم: فلانٌ لا ظِلَّ له إلَّا الشَّمسُ، ولا دابَّةَ إلَّا دابَّةُ ثَوبِه، يَعْنونَ القَمْلَ، ومُرادُهم: لا ظِلَّ له أصلًا، ولا دابَّةَ له أصلًا، وعليه فلا إشكالَ. والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى . وهذا الجوابُ خِلافُ ظاهِرِ القرآنِ.

6- في قَولِه تعالى: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ مُناسَبةٌ: في أنَّ عُلومَ أهلِ الباطِلِ وأعمالَهم الَّتي كانت لغيرِ اللهِ تعالى صَيَّرَها اللهُ تعالى حميمًا سَقاهم إيَّاه، كما أنَّ طعامَهم مِن ضَريعٍ لا يُسْمِنُ ولا يُغني مِن جُوعٍ، وهو تلك العُلومُ والأعمالُ الباطِلةُ الَّتي كانت في الدُّنيا كذلك لا تُسْمِنُ ولا تُغْني مِن جُوعٍ، وهؤلاء هم الَّذين قال اللهُ تعالى فيهم: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا [الكهف: 103-104] ، وهم الَّذين عَنَى

بقَولِه تعالى: وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا [الفرقان: 23] ، وهم الَّذين عَنَى بقَولِه تعالى: كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة: 167] .

7- وصْفُ ضَرِيعٍ بأنَّه لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ لتَشويهِه، وأنَّه تَمحَّضَ للضُّرِّ، فلا يَعودُ على آكلِيه بسِمَنٍ يُصلِحُ بعضَ ما الْتفَحَ مِن أجسادِهِم، ولا يُغْني عنْهم دفْعَ ألَمِ الجوعِ، ولعلَّ الجُوعَ مِن ضُروبِ تَعذيبِهم؛ فيَسألون الطَّعامَ فيُطعَمون الضَّريعَ، فلا يَدفَعُ عنْهم ألَمَ الجوعِ .

بلاغة الآيات:

1- قولُه تعالَى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ

- هذا الاستِفهامُ تَوقيفٌ، وفائدتُه تَحريكُ نفْسِ السَّامعِ إلى تَلقِّي الخبَرِ. وقيل: المعْنى: هلْ كان هذا مِن عِلمِك لَولا ما علَّمْناك؟ وفي هذا تَعديدُ النِّعمةِ. وقيل: هلْ بمعنى (قدْ) ؛ فهو استفهامٌ أُريدَ به التَّعجيبُ ممَّا في حيِّزِه، والتَّشويقُ إلى استِماعِه، والإشعارُ بأنَّه مِن الأحاديثِ البَديعةِ الَّتي حقُّها أنْ يَتناقَلَها الرُّواةُ، ويَتنافَسَ في تَلقِّيها الوُعاةُ مِن كلِّ حاضِرٍ وَبادٍ .

- وأيضًا الافتتاحُ بالاستِفهامِ عن بُلوغِ خبَرِ الغاشيةِ مُستعمَلٌ في التَّشويقِ إلى مَعرفةِ هذا الخبَرِ؛ لِما يَترتَّبُ عليه مِن الموعظةِ، وكونُ الاستفهامِ بـ(هَل) المفيدةِ معْنى (قدْ) فيه مَزيدُ تَشويقٍ؛ فهو استفهامٌ صُوريٌّ يُكنَّى به عن أهمِّيَّةِ الخبَرِ، بحيث شأْنُه أنْ يكونَ بلَغَ السَّامعَ ؛ فالاستفهامُ للتَّشويقِ، كقولِه تبارك وتعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [الصف: 10] . ويجوزُ أن يكونَ للتَّعظيمِ؛ لِعِظَمِ هذا الحديثِ عن الغاشيةِ .

- وأيضًا في وُرودِ الكلامِ في مِثْلِ هذا بصِيغةِ الاستِفهامِ سِرٌّ لطيفٌ، ومعنًى بديعٌ؛ فإنَّ المتكلِّمَ إذا أراد أن يُخبِرَ مُخاطَبَه بأمرٍ عجيبٍ يَنبغي الاعتناءُ به، وإحضارُ الذِّهنِ له، صدَّر له الكلامَ بأداةٍ تُنَبِّهُ سمْعَه وذِهْنَه للمُخبَرِ به؛ فتارةً يُصَدِّرُه بـ «ألَا»، وتارةً يُصدِّرُه بـ «هلْ»، فيقولُ: هل عَلِمتَ ما كان مِن كَيْتَ وكَيْتَ؟ إمَّا مذَكِّرًا به، وإمَّا واعظًا له مُخَوِّفًا، وإمَّا منَبِّهًا على عَظَمةِ ما يُخبِرُ به، وإمَّا مقَرِّرًا له، فقولُه تبارك وتعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى [النازعات: 15] ووَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ [ص: 21] وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ [الذاريات: 24] متضَمِّنٌ لتعظيمِ هذه القصصِ، والتَّنبيهِ على تدَبُّرِها، ومعرفةِ ما تضَمَّنَتْه. وفيه أمرٌ آخَرُ، وهو التَّنبيهُ على أنَّ إتيانَ هذا إليك علَمٌ مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّه مِن الغَيبِ الَّذي لا تَعلَمُه أنت ولا قَومُك، فهلْ أتاك مِن غيرِ إعلامِنا وإرسالِنا وتعريفِنا؟ أوْ لم يأتِكَ إلَّا مِن قِبَلِنا؟ فانظُرْ ظُهورَ هذا الكلامِ بصيغةِ الاستفهامِ، وتأمَّلْ عِظَمَ مَوقِعِه مِن جميعِ مَوارِدِه؛ يَشهَدْ أنَّه مِن الفصاحةِ في ذُروتِها العُلْيا .

- وتَعريفُ ما أُضِيفَ إليه حَدِيثُ بوَصْفِه الْغَاشِيَةِ الَّذي يَقْتضي مَوصوفًا لم يُذكَرْ؛ هو إبهامٌ لزِيادةِ التَّشويقِ إلى بَيانِه الآتي؛ لِيَتمكَّنَ الخبَرُ في الذِّهنِ كَمالَ تَمكُّنٍ .

2- قولُه تعالَى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ

- قولُه: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ إلى قولِه: مَبْثُوثَةٌ استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن الاستِفهامِ التَّشويقيِّ؛ كأنَّه قيلَ مِن جِهتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ما أتانِي حَدِيثُها؛ فما هو؟ فقيلَ: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ... .

- ووُجُوهٌ مُبتدأٌ، وخَاشِعَةٌ خبَرٌ، والجُملةُ بَيانٌ لحَديثِ الغاشيةِ، كما يُفيدُه الظَّرفُ مِن قولِه: يَوْمَئِذٍ؛ فإنَّ (ماصدَقَه) هو يومُ الغاشيةِ، ويكونُ تَنكيرُ وُجُوهٌ -وهو مُبتدأٌ- قُصِدَ منه النَّوعُ .

- ويَتعلَّقُ يَوْمَئِذٍ بكَلمةِ خَاشِعَةٌ؛ قُدِّمَ على مُتعلَّقِه للاهتِمامِ بذلك اليَومِ .

- وخَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ أخبارٌ ثلاثةٌ عن وُجُوهٌ، والمعْنى: أناسٌ خاشِعون... إلخ، فالوُجوهُ كِنايةٌ عن أصحابِها؛ إذ يُكنَّى بالوَجْهِ عن الذَّاتِ، وقَرينةُ ذلك هنا قولُه بعْدَه: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ؛ إذ جُعِلَ ضَميرُ الوُجوهِ جَماعةَ العُقلاءِ؛ فالمرادُ بالوُجوهِ في قولِه: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ وقولِه: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ جَميعُ الأبدانِ؛ لأنَّ ما ذُكِرَ مِن الأوصافِ لا يَختصُّ بالوُجوهِ. وأُوثِرَت الوُجوهُ بالكِنايةِ عن أصحابِها هنا وفي مِثلِ هذا المَقامِ؛ لأنَّ حالةَ الوُجوهِ تُنبِئُ عن حالةِ أصحابِها؛ إذ الوجْهُ عُنوانٌ عمَّا يَجِدُه صاحِبُه مِن نَعيمٍ أو شِقوةٍ، كما يُقالُ: خرَجَ بوَجْهٍ غيرِ الوجْهِ الَّذي دَخَلَ به .

- ولَمَّا كانتْ (إذ) مِن الأسماءِ الَّتي تَلزَمُ الإضافةَ إلى جُملةٍ، فالجُملةُ المُضافُ إليها (إذ) في قولِه: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ مَحذوفةٌ، عُوِّض عنها التَّنوينُ، ويدُلُّ عليها ما في اسمِ الغاشيةِ مِن لَمْحِ أصْلِ الوصفيَّةِ؛ لأنَّها بمعْنى: الَّتي تَغْشى النَّاسَ، فتَقديرُ الجُملةِ المحذوفةِ: يومَ إذ تَغْشى الغاشيةُ، أو يدُلُّ على الجُملةِ سِياقُ الكلامِ، فتُقدَّرُ الجُملةُ: يومَ إذ تَحدُثُ أو تَقَعُ .

- وأُوثِرَ وصْفُ خَاشِعَةٌ وعَامِلَةٌ ونَاصِبَةٌ تَعريضًا بأهلِ الشَّقاءِ؛ بتَذكيرِهم بأنَّهم تَرَكوا الخُشوعَ للهِ، والعمَلَ بما أمَرَ به، والنَّصَبَ في القِيامِ بطاعتِه، فجَزاؤهم خُشوعُ مَذلَّةٍ، وعمَلُ مَشقَّةٍ، ونصَبُ إرهاقٍ .

3- قولُه تعالَى: تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ

- جُملةُ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً خبَرٌ رابعٌ عن وُجُوهٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ حالًا، يُقالُ: صَلِيَ يَصْلى؛ إذا أصابَه حرُّ النَّارِ؛ وعليه فذِكرُ نَارًا بعْدَ تَصْلَى لزِيادةِ التَّهويلِ والإرهابِ، وليُجْرى على نَارًا وصْفُ حَامِيَةً .

- ووَصْفُ النَّارِ بوَصْفِ حَامِيَةً لإفادةِ تَجاوُزِ حرِّها المِقدارَ المعروفَ؛ لأنَّ الحَمْيَ مِن لَوازمِ ماهيَّةِ النَّارِ، فلمَّا وُصِفَت بـ حَامِيَةً كان دالًّا على شِدَّةِ الحَمْيِ .

- وأخبَرَ عن وُجُوهٌ خبَرًا خامسًا بجُملةِ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ، أو هو حالٌ مِن ضَميرِ تَصْلَى؛ لأنَّ ذِكرَ الاحتِراقِ بالنَّارِ يُحضِرُ في الذِّهنِ تَطَلُّبَ إطفاءِ حَرارتِها بالشَّرابِ، فجُعِلَ شَرابُهم مِن عَينٍ آنيةٍ .

- قولُه: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للإجابةِ عن سُؤالٍ مُترتِّبٍ على ما سَبَق، كأنَّه قِيل: وما هو طَعامُهم بعْدَما ذُكِرَ شَرابُهم ؟ فذِكرُ السَّقيِ يُحضِرُ في الذِّهنِ تَطلُّبَ مَعرفةِ ما يَطعَمونَه؛ فجِيءَ به خبَرًا سادِسًا، أو حالًا مِن ضَميرِ تُسْقَى، أي: يُطعَمون طَعامَ إيلامٍ وتَعذيبٍ، لا نفْعَ فيه لهمْ، ولا يَدفَعُ عنهم ألَمًا .

- وضَميرُ لَهُمْ عائدٌ إلى وُجُوهٌ باعتِبارِ تَأويلِه بأصحابِ الوُجوهِ؛ ولذلك جِيءَ به ضَميرَ جَماعةِ المُذكَّرِ، والتَّذكيرُ تَغليبٌ للذُّكورِ على الإناثِ .

- قولُه: لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ تَنكيرُ الجوعِ للتَّحقيرِ، أيْ: لا يُغْني مِن جُوعٍ ما. وتَأخيرُ نَفْيِ الإغناءِ منه؛ لمُراعاةِ الفواصلِ، والتَّوسُّلِ به إلى التَّصريحِ بنفْيِ كِلا الأمْرَينِ؛ إذْ لو قُدِّمَ لَمَا احتِيجَ إلى ذِكرِ نفْيِ الإسمانِ؛

ضَرورةَ استِلْزامِ نفْيِ الإغناءِ عن الجوعِ إيَّاه، بخِلافِ العكسِ؛ ولذلك كُرِّرَ (لا) لتَأكيدِ النَّفيِ .

- وفي قولِه: لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّتميمِ ؛ فجُملةُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ جُملةٌ لا يُمكِنُ طَرحُها مِن الكلامِ؛ لأنَّه لَمَّا قال: لَا يُسْمِنُ ساغَ لمُتوهِّمٍ أنْ يَتوهَّمَ أنَّ هذا الطَّعامَ الَّذي ليس مِن جِنسِ طَعامِ البشَرِ انتَفَت عنه صِفةُ الإسمانِ، ولكنْ بَقِيَت له صِفةُ الإغناءِ، فجاءت جُملةُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ تَتْميمًا للمعْنى المرادِ؛ وهو أنَّ هذا الطَّعامَ انتَفَت عنه صِفةُ إفادةِ السِّمَنِ والقوَّةِ كما انتَفَت عنه صِفةُ إماطةِ الجوعِ وإزالتِه.

وقيل: هو مِن بابِ نفْيِ الشَّيءِ بإيجابِه، على حدِّ قَولِ امرئِ القَيسِ:

على لاحِبٍ لا يُهْتَدى بمَنارِهِ

أي: إنَّه لا مَنارَ له أصلًا، وكما تقولُ: ليس لفُلانٍ ظِلٌّ إلَّا الشَّمسَ، تُريدُ نفْيَ الظِّلِّ على التَّوكيدِ، وليس ببَعيدٍ، والأوَّلُ أرصَنُ وأبعَدُ عن التَّكلُّفِ .

- قَولُه: لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ فيه احتِباكٌ : نَفْيُ السِّمَنِ أوَّلًا يدُلُّ على إثباتِ الهُزالِ ثانيًا، ونَفيُ الإغناءِ مِنَ الجُوعِ ثانيًا يدُلُّ على نَفيِ الشِّبَعِ أوَّلًا .

تم قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ١٦)

التفسير المأثور

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ٨)

قراءات:

٨٢٨٣٢ - عن سعيد بن جُبَير أنه قرأ في سورة الغاشية: (مُتَّكِئِينَ فِيها ناعِمِينَ فِيها) (٣). (١٥/ ٣٨٥)

عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد. وهي قراءة شاذة.

٨٢٨٣٣ - قال مقاتل بن سليمان: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ) يعني: فَرِحة، شبّه الله عز وجل وجوههم بوجوه قوم فَرِحين؛ إذا أصابوا الشراب طابتْ أنفسهم، فاجتمع الدم في وجوههم، فاجتمع فرح القلوب وفرح الشراب، فهو ضاحك الوجه، مبتسم طيّب النفس (١). (ز)

******

(لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ٩)

٨٢٨٣٤ - قال مقاتل بن سليمان: (لِسَعْيِها راضِيَةٌ)، يعني: قد رضي الله عمله، فأثابه الله □ ذلك بعمله (٢). (ز)

٨٢٨٣٥ - عن سفيان، في قوله: (لِسَعْيِها راضِيَةٌ)، قال: رَضِيَتْ عملها (٣). (١٥/ ٣٨٥)

*****

(فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ١٠)

٨٢٨٣٦ - قال مقاتل بن سليمان: (فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ) وإنما سمّاها عالية لأن جهنم أسفل منها، وهي دركات، والجنة درجات (٤). (ز)

****

(لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ١١)

قراءات:

٨٢٨٣٧ - عن عاصم أنه قرأ: (لا تَسْمَعُ فِيها) بالتاء ونصب التاء، (لاغِيَةً) منصوبة منونة (٥) [٧١٤٥]. (١٥/ ٣٨٥)

عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد.

وهي قراءة متواترة، قرأ بها العشرة، ما عدا ابن كثير، وأبا عمرو، ورويسًا؛ فإنهم قرؤوا: «لا يُسْمَعُ فِيها لاغِيَةٌ» بالياء، ورفع (لاغِيَةٌ)، وما عدا نافعًا فإنه قرأ: «لا تُسْمَعُ فِيها لاغِيَةٌ» بالتاء ورفع (لاغِيَةٌ). انظر: النشر ٢/ ٤٠٠، والإتحاف ص ٥٨١.

[٧١٤٥] اختلفت القرأة في قراءة قوله تعالى: (لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً) على ثلاث قراءات: الأولى: (لا تَسْمَعُ) بفتح التاء، بمعنى: لا تسمع الوجوه. الثانية: «لا تُسْمَعُ» بضم التاء، بمعنى: ما لم يُسمّ فاعله. الثالثة: «لا يُسْمَعُ» بالضم أيضًا غير أنها بالياء.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣٣٦) «أن كل ذلك قراءاتٌ معروفاتٌ صحيحات المعاني، فبأيِّ ذلك قرأ القارئ فمصيبٌ».

تفسير الآية:

٨٢٨٣٨ - عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية العَوفيّ- في قوله: (لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً)، يقول: لا تَسمع أذًى ولا باطلًا (١). (١٥/ ٣٨٥)

٨٢٨٣٩ - عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- (لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً)، قال: شتمًا (٢). (١٥/ ٣٨٦)

٨٢٨٤٠ - عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- (لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً)، قال: لا تَسمع فيها باطلًا، ولا مَأْثَمًا (٣). (١٥/ ٣٨٦)

٨٢٨٤١ - عن سليمان بن مهران الأعمش، (لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً)، قال: مُؤْذِيَة (٤). (١٥/ ٣٨٦)

٨٢٨٤٢ - قال مقاتل بن سليمان: (لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً)، يقول: لا يسمع بعضهم من بعض غيبة، ولا كذب، ولا شتم (٥) [٧١٤٦]. (ز)

[٧١٤٦] ذكر ابنُ جرير (٢٤/ ٣٣٤) عن بعض نحويي الكوفة أنّ معنى الآية: «لا تسمع فيها حالفةٌ على الكذب، ولذلك قيل: لاغية». ثم انتقده -مستندًا إلى أقوال السلف- قائلًا: «ولهذا الذي قاله مذهبٌ ووجْهٌ، لولا أنّ أهل التأويل من الصحابة والتابعين على خلافه، وغير جائزٍ لأحدٍ خلافهم فيما كانوا عليه مُجْمِعين».

*****

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾

٨٢٨٤٣ - قال مقاتل بن سليمان: (فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ) يعني: في الجنة؛ لأنها فيها تجري الأنهار (١) [٧١٤٧]. (ز)

[٧١٤٧] ذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٠٠) في معنى: (عَيْنٌ) قوله: «(عَيْنٌ) في هذه الآية اسم جنس، ويحتمل أن تكون عينًا مخصوصة ذُكرت على جهة التشريف لها».

****

(فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ١٣)

٨٢٨٤٤ - عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية العَوفيّ- في قوله: (فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ)، قال: بعضها فوق بعض (٢). (١٥/ ٣٨٦)

٨٢٨٤٥ - قال عبد الله بن عباس: (فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ) ألواحها مِن ذهب، مُكلّلة بالزَّبَرْجد والدُّرّ والياقوت، مرتفعة ما لم يجئ أهلها، فإذا أراد أن يجلس عليها تواضعتْ له حتى يجلس عليها، ثم ترتفع إلى مواضعها (٣). (ز). تفسير البغوي ٨/ ٤٠٩

٨٢٨٤٦ - قال مقاتل بن سليمان: (فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ) منسوجة بقضبان الدُّرّ والذَّهب، عليها سبعون فراشًا، كلّ فراش قدر غرفة مِن غرف الدنيا (٤). (ز)

٨٢٨٤٧ - عن عبد الملك ابن جُرَيْج، (فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ)، قال: مرتفعة (٥). (١٥/ ٣٨٦)

*****

(وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ١٤)

٨٢٨٤٨ - عن عطاء الخُراسانيّ -من طريق يونس بن يزيد- في قول الله □: (وأكواب)، قال: الأكواب: الأقساط (٦). (ز)

٨٢٨٤٩ - قال مقاتل بن سليمان: (وأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ)، يعني: مصفوفة، وهي أكواب من فِضّة، وهي في الصفاء مثل القوارير، مُدَوَّرة الرؤوس، ليس لها عُرًى ولا خراطيم (٧). (ز)

****

(وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ١٥◌)

٨٢٨٥٠ - عن عبد الله بن عباس -من طريق عطية العَوفيّ- في قوله: (ونَمارِقُ)، قال: مجالس (١). (١٥/ ٣٨٦)

٨٢٨٥١ - عن عبد الله بن عباس، في قوله: (ونَمارِقُ)، قال: الوسائد (٢). (١٥/ ٣٨٦)

٨٢٨٥٢ - عن عبد الله بن عباس -من طريق علي- في قوله: (ونَمارِقُ)، قال: المرافق (٣). (١٥/ ٣٨٦)

٨٢٨٥٣ - عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- في قوله: (ونَمارِقُ)، قال: الوسائد (٤). (١٥/ ٣٨٦)

٨٢٨٥٤ - قال مقاتل بن سليمان: (ونَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ)، يعني: الوسائد الكبار العظام، مصفوفة على الطنافس، وهي بلغة قريش خاصة (٥). (ز)

******

(وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ١٦◌)

قراءات:

٨٢٨٥٥ - عن عمار بن محمد، قال: صَلّيتُ خلف منصور بن المعتمر، فقرأ: (هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الغاشِيَةِ)، فقرأ فيها: (وزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ مُّتَّكِئِينَ فِيها ناعِمِينَ) (٦). (١٥/ ٣٨٧) عزاه السيوطي إلى ابن الأنباري في المصاحف. وهي قراءة شاذة.

تفسير الآية:

٨٢٨٥٦ - عن عبد الله بن عباس، في قوله: (وزَرابِيُّ)، قال: البُسط (٧). (١٥/ ٣٨٦)

٨٢٨٥٧ - قال عبد الله بن عباس: (وزَرابِيُّ) هي الطنافس التي لها خمل رقيق (١). (ز)

٨٢٨٥٨ - عن عكرمة مولى ابن عباس، (وزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)، قال: بعضها على بعض (٢). (١٥/ ٣٨٧)

٨٢٨٥٩ - عن الحسن البصري، (وزَرابِيُّ)، قال: البُسُط (٣). (١٥/ ٣٨٦)

٨٢٨٦٠ - عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- في قوله: (مَبْثُوثَةٌ)، قال: مبسوطة (٤). (١٥/ ٣٨٦)

٨٢٨٦١ - قال مقاتل بن سليمان: (وزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ)، يعني: طنافس مبسوطة بعضها على بعض، يذكّرهم الله صُنعه؛ ليعتبر عباده، فيحرصوا عليها، ويرغبوا فيها، ويحذروا النار، فإنّ عقوبته على قدر سلطانه، وكرامته قدر سلطانه (٥). (ز)

آثار متعلقة بالآية:

٨٢٨٦٢ - عن عبد الله بن أبي الهذيل: أنّ موسى أو غيره من الأنبياء قال: يا ربّ، كيف يكون هذا منك؟! أولياؤك في الأرض خائفون يُقتلون، ويطلبون فلا يُعطون، وأعداؤك يأكلون ما شاؤوا، ويشربون ما شاؤوا! ونحو هذا، فقال: انطلِقوا بعبدي إلى الجنة. فينظر ما لم يَر مثله قطّ؛ إلى أكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابيّ مبثوثة، وإلى الحُور العين، وإلى الثمار، وإلى الخدم كأنهم لؤلؤ مكنون، فقال: ما ضرّ أوليائي ما أصابهم في الدنيا إذا كان مصيرهم إلى هذا؟! ثم قال: انطلِقوا بعبدي. فانطُلق به إلى النار، فخرج منها عُنق، فصَعِق العبد، ثم أفاق، فقال: ما نفع أعدائي ما أعطيتُهم في الدنيا إذا كان مصيرهم إلى هذا؟ قال: لا شيء (٦). (١٥/ ٣٨٧)

أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١١٥ قال: حدثنا علي بن مسهر عن الأجلح عن عبد اللَّه بن أبي الهذيل أن موسى -أو غيره- من الأنبياء قال... فذكره.

٨٢٨٦٣ - عن عبد الله بن عمار -من طريق عكرمة بن خالد- قال: رأيتُ عمر بن الخطاب يُصلِّي على عبقريّ، وهو الزرابيّ (٧). (ز)

التفسير المحرر

(وُجُوه يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَة ٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَة ٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَة ١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَة ١١ فِيهَا عَيْن جَارِيَة

١٢ ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ١٣ ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ١٤ ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ١٥ ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ١٦ ﴿)

<u>غريب الكلمات:</u>

لِسَعْيِهَا: أي: لِعَمَلِها الَّذي عَمِلَتْ في الدُّنْيا مِن طاعةِ رَبِّها، والسَّعْيُ: المَشيُ السَّريعُ، وهو دُونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، خيرًا كان أو شرًّا، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ السَّعْيُ في الأفعالِ المحمودةِ .

لَاغِيَةً: أي: لَغوًا أو باطِلًا مِنَ القَولِ، واللَّغْوُ مِنَ الكَلامِ: ما لا يُعتَدُّ به، وأصلُ (لغو): يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به .

وَأَكْوَابٌ: جمعُ كوبٍ، وهو القَدَحُ لا عُرْوةَ له، وقيل: هو إناءٌ مستديرُ الرَّأسِ لا عُرْوةَ له، وقيل: هو الَّذي لا خُرطومَ له، فإذا كان لها خُرطومٌ فهو إبريقٌ .

وَنَمَارِقُ: أي: وَسائِدُ ومَرافِقُ، واحدتُها: نُمْرُقةٌ ونِمْرِقةٌ .

وَزَرَابِيُّ: أي: بُسُطٌ فاخِرةٌ، واحدتُها: زَرْبِيَّةٌ .

مَبْثُوثَةٌ: أي: مَبسوطةٌ مُتفَرِّقةٌ في المجالِسِ، وأصلُ (بثث): تفريقُ الشَّيءِ وإظهارُه .

<u>المعنى الإجمالي:</u>

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ أهلِ الجنَّةِ مِن المؤمنينَ وما هم فيه مِن النَّعيمِ: وتكونُ وُجوهُ المُؤمِنينَ يَومَ القيامةِ عليها أَثَرُ النِّعمةِ؛ مِنَ البَهجةِ والسُّرورِ والنَّضرةِ، راضِينَ عَمَّا عَمِلوه في الدُّنيا مِن أعمالٍ صالحةٍ، حينَ وَجَدوا

ثوابَها العَظيمَ في الآخِرةِ، وهم في جَنَّةٍ مُرتَفِعةٍ، لا يَسمَعونَ فيها ما لا فائِدةَ فيه مِن الكَلامِ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ صِفاتِ الجنَّةِ، فيقولُ: في تلك الجَنَّةِ العاليةِ عَينٌ جارِيةٌ مِن غَيرِ أُخدودٍ، وفي تلك الجَنَّةِ أَسِرَّةٌ عالِيةٌ مُرتَفِعةٌ، وأكوابٌ مَوضوعةٌ بيْن أيديهم، ووَسائِدُ مُرَتَّبةٌ ومَصفوفةٌ بَعضُها بجانبِ بَعضٍ، وفُرُشٌ فاخِرةٌ مُنتَشِرةٌ!

<u>تفسير الآيات:</u>

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8).

<u>مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها</u>:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه وَعيدَ الكُفَّارِ؛ أَتْبَعَه بشَرحِ أحوالِ المُؤمِنينَ .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8).

أي: يَظهَرُ على وُجوهِ المُؤمِنينَ يَومَ القيامةِ أَثَرُ النِّعمةِ؛ مِنَ البَهجةِ والسُّرورِ والنَّضرةِ، والرَّاحةِ والرَّفاهِيَةِ .

كما قال تعالى: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ [المطففين: 22 - 24] .

لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9).

أي: أصحابُ تلك الوُجوهِ راضُونَ عَمَّا عَمِلوه في الدُّنيا مِن أعمالٍ صالحةٍ، حينَ وَجَدوا ثوابَها العَظيمَ في الآخِرةِ .

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر السَّعْيَ؛ أتْبَعَه ثَوابَه .

وأيضًا لمَّا ذَكَر وَصفَ أهلِ الثَّوابِ أوَّلًا؛ وَصَفَ دارَ الثَّوابِ ثانيًا .

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10).

أي: في جَنَّةٍ مُرتَفِعةٍ، وفي مَوضِعٍ عالٍ .

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما كان مِن هذا لا يَصفُو وفيه ما يُكرَهُ مِنَ الكَلامِ، قال مُنَزِّهًا لها عن كُلِّ سُوءٍ :

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11).

أي: لا يَسمَعونَ فيها أيَّ كَلِمةٍ لا فائِدةَ مِن وَرائِها .

كما قال تعالى: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا [مريم: 62] .

وقال الله سُبحانَه وتعالى: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة: 25-26] .

وقال عزَّ وجَلَّ: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا [النبأ: 35] .

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12).

أي: في تلك الجَنَّةِ العاليةِ عَينٌ جاريةٌ بماءٍ أو بغَيرِه مِنَ الأشرِبةِ، مِن غَيرِ أُخدودٍ .

كما قال تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [الحجر: 45] .
وقال سُبحانَه: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى [محمد: 15] .
وقال عزَّ وجَلَّ: وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ [الواقعة: 31] .

فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13).

<u>مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:</u>

لَمَّا لم يَبْقَ بَعدَ الأكلِ والشُّربِ إلَّا الاتِّكاءُ؛ قال مُفْهِمًا أنَّهم مُلوكٌ :
فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13).
أي: فيها أَسِرَّةٌ عاليةٌ مُرتَفِعةٌ، يَجلِسونَ عليها أو يَضطَجِعونَ .
كما قال الله تعالى: وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [الحجر: 47] .

وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14).

<u>مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:</u>

لَمَّا كان المُستريحُ يَحتاجُ إلى تَكرارِ الشُّربِ وما يَشرَبُ فيه، قال :
وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14).
أي: فيها أكْوابٌ ، مَوضوعةٌ بيْنَ أيديهم، كلَّما أرادوها وجَدوها حاضرةً عندَهم، قد أُعِدَّتْ لهم بأشرِبَتِها .

كما قال تعالى: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [الزخرف: 70-71] .

وقال سُبحانَه وتعالى: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ [الواقعة: 17-18] .

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15).

أي: وفيها وَسائِدُ مُرَتَّبةٌ ومَصفوفةٌ بَعضُها بجانبِ بَعضٍ، يَستَنِدونَ إليها .

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16).

<u>مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها</u>:

لَمَّا كان مَن هو بهذه المنزلةِ يَحتاجُ إلى المسانِدِ والفُرُشِ الزَّائِدةِ، قال تعالى :

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16).

أي: وفيها فُرُشٌ فاخِرةٌ جَميلةٌ كَثيرةٌ مُنتَشِرةٌ .

<u>الفوائد العلمية واللطائف</u>:

1- في قَولِه تعالى: لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً تنبيهٌ على أنَّ الجنَّةَ دارُ جِدٍّ وحَقيقةٍ، فلا كَلامَ فيها إلَّا لفائِدةٍ؛ لأنَّ النُّفوسَ فيها تخلَّصَت مِن النَّقائصِ كُلِّها، فلا يَلَذُّ لها إلَّا الحقائِقُ والسُّمُوُّ العَقليُّ والخُلُقيُّ، ولا يَنطِقونَ إلَّا ما يَزيدُ النُّفوسَ تَزكيةً .

2- قال الله تعالى: فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ هذا وَعدٌ للمُؤمِنينَ بأنَّ لهم في الجنَّةِ ما يَعرِفونَ مِنَ النَّعيمِ في الدُّنيا، وقد عَلِموا أنَّ تَرَفَ الجنَّةِ لا يَبلُغُه الوَصفُ بالكلامِ، وجُمِعَ ذلك بوَجهِ الإجمالِ في قَولِه تعالى: وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ [الزخرف: 71] ، ولكِنَّ الأرواحَ تَرتاحُ بمألوفاتِها فتُعْطاها، فيكونُ نَعيمُ أرواحِ النَّاسِ في كُلِّ عَصرٍ ومِن كُلِّ مِصرٍ في الدَّرَجةِ القُصْوى ممَّا أَلِفوه، ولا سِيَّما ما هو مألوفٌ لجَميعِ أهلِ الحَضارةِ والتَّرَفِ، وكانوا يتمَنَّونَه في الدُّنيا، ثمَّ يُزادونَ مِنَ النَّعيمِ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَر على قَلْبِ بَشَرٍ .

3- في قَولِه تعالى: فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ انظُرْ للتَّقابُلِ: فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ عاليةٌ يَجلِسونَ عليها يَتَفَكَّهونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ [يس: 56] ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ يعني: ليست مرفوعةً عنهم، بل هي موضوعةٌ لهم، متى شاؤوا شَرِبوا فيها مِن أنهارِ الجَنَّةِ الأربعةِ.

بلاغة الآيات :

1- قولُه تعالَى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ شُروعٌ في رِوايةِ حَديثِ أهلِ الجنَّةِ. وتَقديمُ حِكايةِ حالِ أهلِ النَّارِ في الآياتِ السَّابقةِ؛ لأنَّه أدخَلُ في تَهويلِ الغاشيةِ وتَفخيمِ حَديثِها، ولأنَّ حِكايةَ حُسنِ حالِ أهلِ الجنَّةِ بعدَ حِكايةِ سُوءِ حالِ أهلِ النارِ ممَّا يَزيدُ المَحكيَّ حُسنًا وبَهجةً. وإنَّما لم تُعطَفْ عليها؛ إيذانًا بكَمالِ تَبايُنِ مَضمونَيهِما .

- وكذلِك يَتبادَرُ في بادئِ الرَّأيِ أنَّ حقَّ هذه الجُملةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ أنْ تُعطَفَ على جُملةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ [الغاشية: 2] بالواوِ؛ لأنَّها مُشارِكةٌ لها في حُكْمِ البَيانِ لحَديثِ الغاشيةِ، كما عُطِفَت في سُورةِ (عَبَسَ) جُملةُ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ [عبس: 40] على جُملةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ [عبس: 38] ، فيَتَّجِهُ أنْ يُسأَلَ عن وَجْهِ فصْلِها عن الَّتي قبْلها، ووَجْهُ الفصلِ التَّنبيهُ على أنَّ المقصودَ مِن الاستِفهامِ في هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ [الغاشية: 1] الإعلامُ بحالِ المُعرَّضِ بتَهديدِهم، وهمْ أصحابُ الوُجوهِ الخاشعةِ، فلمَّا حَصَلَ ذلك الإعلامُ بجُملةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ [الغاشية: 2] إلى آخِرِها، تمَّ المقصودُ، فجاءتِ الجُملةُ بعْدَها مَفصولةً؛ لأنَّها جُعِلَت استِئنافًا بَيانيًّا جَوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ تُثيرُه الجُملةُ السَّابقةُ، فيَتساءَلُ السَّامعُ: هلْ مِن حَديثِ الغاشيةِ ما هو مُغايرٌ لهذا الهوْلِ؟ أي: ما هو أُنسٌ ونَعيمٌ لقَومٍ آخَرينَ، ولهذا النَّظمِ صارتْ هذه الجُملةُ بمَنزلةِ الاستِطرادِ والتَّتميمِ؛ لإظهارِ الفرْقِ بيْن حالَيِ الفَريقَينِ، ولتَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ؛ فمَوقعُ هذه الجُملةِ المُستأنَفةِ مَوقعُ الاعتراضِ، ولا تَنافيَ بيْنَ الاستِئنافِ والاعتراضِ، وذلك مُوجِبٌ لفصْلِها عمَّا قبْلَها، وفيه جَرْيُ القرآنِ على سَنَنِه مِن تَعقيبِ التَّرهيبِ والتَّرغيبِ، فأمَّا الجُملتانِ اللَّتانِ في سُورةِ (عَبَسَ)، فلمْ يَتقدَّمْهما إبهامٌ؛ لأنَّهما مُتَّصلتانِ معًا بالظَّرفِ، وهو فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ [عبس: 33] .

- قولُه: لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ المرادُ بالسَّعيِ: العمَلُ الَّذي يَسعاهُ المَرءُ ليَستفيدَ منه، وعُبِّرَ به هنا مُقابِلَ قولِه في ضِدِّه: عَامِلَةٌ [الغاشية: 3] .

2- قولُه تعالَى: فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً

- قولُه: فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ خبَرٌ ثالثٌ عن وُجُوهٌ، والجنَّةُ أُريدَ بها مَجموعُ دار الثَّوابِ الصَّادقُ بجنَّاتٍ كَثيرةٍ، أو أُرِيدَ بها الجِنسُ. ووَصْفُ جَنَّةٍ بـ عَالِيَةٍ؛ لزِيادةِ الحُسنِ؛ لأنَّ أحسَنَ الجنَّاتِ ما كان في المُرتفَعاتِ؛ قال تعالَى: كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ [البقرة: 265] ، فذلك يَزيدُ حُسنَ باطِنِها بحُسنِ ما يُشاهِدُه الكائنُ فيها مِن مَناظِرَ، وهذا وصْفٌ شاملٌ لحُسنِ مَوقعِ الجنَّةِ .

- قولُه: لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً اللَّاغيةُ: مَصدرٌ بمعْنى اللَّغوِ، مِثْلُ الكاذِبةِ للكذِبِ، والخائنةِ والعافيةِ، أي: لا يُسمَعُ فيها لَغوٌ، أو هو وصْفٌ لمَوصوفٍ مُقدَّرِ التَّأنيثِ، أو هي على معْنى النَّسبِ، أي: كَلمةً ذاتَ لَغوٍ، أو نفْسًا تَلْغو .

- ونَفْيُ سَماعِ لاغيةٍ مُكنًّى به عن انتفاءِ اللَّغوِ في الجنَّةِ، مِن بابِ:

ولا تَرى الضَّبَّ بها يَنْجَحِرْ

أي: لا ضبَّ بها؛ إذ الضَّبُّ لا يَخْلو مِن الانجِحارِ .

- وقدِ ابتُدِئَ في تَعدادِ صِفاتِ الجنَّةِ بصِفتِها الذَّاتيَّةِ، وهو كَونُها عاليةً، وثُنِّيَ بصِفةِ تَنزيهِها عمَّا يُعَدُّ مِن نَقائصِ مَجامعِ النَّاسِ ومَساكِنِ الجَماعاتِ، وهو الغَوغاءُ واللَّغوُ، وقد جُرِّدَت جُملةُ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً مِن أنْ تُعطَفَ على عَالِيَةٍ [الغاشية: 10] ؛ مُراعاةً لعدَمِ التَّناسُبِ بيْن المُفرداتِ والجُمَلِ، وذلك حَقيقٌ بعدَمِ العطْفِ؛ لأنَّه أشدُّ مِن كَمالِ الانقطاعِ في عطْفِ الجُمَلِ، وهذا وصْفٌ للجنَّةِ بحُسنِ سُكَّانِها .

3- قولُه تعالَى: فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ

- قولُه: فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ صِفةٌ ثالثةٌ لـ جَنَّةٍ [الغاشية: 10] . والمرادُ جِنسُ العُيونِ، يُريدُ أنَّ فيها عُيونًا في غايةِ الكَثرةِ، وهذا وصْفٌ للجنَّةِ باستِكمالِها مَحاسنَ الجنَّاتِ، أو المرادُ عَينٌ مَخصوصةٌ، ذُكِرَت تَشريفًا لها .

- وقولُه: فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ، أي: يَجْري ماؤها ولا يَنقطِعُ، والتَّنكيرُ للتَّعظيمِ

.

- وإنَّما لم تُعطَفْ على الجُملةِ الَّتي قبْلَها؛ لاختِلافِهما؛ بالفِعليَّةِ في الأُولى، والاسميَّةِ في الثَّانيةِ، وذلك الاختلافُ مِن مُحسِّناتِ الفصْلِ؛ ولأنَّ جُملةَ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً مَقصودٌ منها التَّنزُّهُ عن النَّقائصِ، وجُملةَ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ مَقصودٌ منها إثباتُ بَعضِ مَحاسنِها .

- قولُه: فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ صِفةٌ رابعةٌ لـ جَنَّةٍ، وأُعِيدَ قولُه: فِيهَا دونَ أنْ يُعطَفَ سُرُرٌ على عَيْنٌ عطْفَ المُفرَداتِ؛ لأنَّ عطْفَ السُّررِ على عَيْنٌ يَبْدو نابيًا عن الذَّوقِ؛ لعدَمِ الجامعِ بيْن عَينِ الماءِ والسُّررِ في الذِّهنِ لولا أنْ جَمَعَها الكَونُ في الجنَّةِ؛ فلذلك كُرِّرَ ظَرفُ فِيهَا تَصريحًا بأنَّ تلك الظَّرفيَّةَ هي الجامعُ، ولأنَّ بيْن ظَرفيَّةِ العَينِ الجاريةِ في الجنَّةِ وبيْن ظَرفيَّةِ السُّررِ وما عُطِفَ عليه مِن مَتاعِ القُصورِ والأثاثِ: تَفاوُتًا؛ ولذلك عُطِفَ وَأَكْوَابٌ، وَنَمَارِقُ، وَزَرَابِيٌّ؛ لأنَّها مُتماثِلةٌ في أنَّها مِن مَتاعِ المساكنِ الفائقةِ، وهذا وصْفٌ لمَحاسنِ الجنَّةِ بمَحاسِنِ أثاثِ قُصورِها، فضَميرُ فِيهَا عائدٌ للجنَّةِ باعتبارِ أنَّ ما في قُصورِها هو مَظروفٌ فيها بواسطةٍ .

- وقولُه: فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ سُررٌ: جمْعُ سَريرٍ، وهو ما يُجلَسُ عليه ويُضطجَعُ عليه، فيَسَعُ الإنسانَ المُضْطَجِعَ، يُتَّخَذُ مِن خشَبٍ أو حَديدٍ له قَوائمُ ليَكونَ مُرتفِعًا عن الأرضِ. ولَمَّا كان الارتفاعُ عن الأرضِ مَأخوذًا مِن مَفهومِ السُّررِ، كان وصْفُها بـ مَرْفُوعَةٌ لتَصويرِ حُسنِها .

- قولُه: وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ كُنِّيَ بـ مَوْضُوعَةٌ عن عدَمِ انقِطاعِ لَذَّةِ الشَّرابِ طعْمًا ونَشوةً، أي: مَوضوعةٌ بما فيها مِن أَشربةٍ .

- قولُه: وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ المَبثوثةُ: المُنتشِرةُ على الأرضِ بكَثرةٍ، وذلك يُفيدُ كِنايةً عن الكَثرةِ .

- وقد قُوبِلَت صِفاتُ وُجوهِ أهلِ النَّارِ بصِفاتِ وُجوهِ أهلِ الجنَّةِ؛ فقُوبِلَت صِفاتُ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ [الغاشية: 2-3] ، بصِفاتِ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ [الغاشية: 8-9] ، وقُوبِلَ قولُه: تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً [الغاشية: 4] بقولِه: فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ [الغاشية: 10] ، وقُوبِلَ: تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ [الغاشية: 5] بقولِه: فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ [الغاشية: 12] ، وقُوبِلَ شَقاءُ عَيشِ أهلِ النَّارِ الَّذي أفادَه قولُه: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ [الغاشية: 6-7] ، بمَقاعِدِ أهلِ الجنَّةِ المُشعِرةِ بتَرَفِ العَيشِ مِن شَرابٍ ومَتاعٍ .

ثم قال تعالى:

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠)

التفسير المأثور

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧) -

نزول الآية

٨٢٨٦٤- عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- قال: لما نعت الله ما في الجنة عجِب من ذلك أهلُ الضلالة؛ فأنزل الله: (أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)، وكانت الإبل عيشًا من عيش العرب، وخَوَلًا مِن خَوَلهم(١). (١٥/٣٨٨)

٨٢٨٦٥- عن قتادة بن دعامة، قال: ذكر الله تعالى ارتفاع سُرُرِ الجنة، وفُرُشِها، فقالوا: كيف نصعدها؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية(٢). (ز)

تفسير الثعلبي ١٠/١٨٩، وتفسير البغوي ٨/٤١٠

تفسير الآية

٨٢٨٦٦- سُئِل الحسن البصري عن هذه الآية: (أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)، وقيل له: الفيل أعظم في الأعجوبة؟ فقال: أمّا الفيل فالعرب بعيدة العهد بها، ثم هو لا خير فيه، لا يُركب ظهرها، ولا يؤكل لحمها، ولا يُحلب درّها، والإبل أعزّ مالٍ للعرب وأنفَسها، تأكل النوى والقتّ وتُخرج اللبن(٣). (ز)

تفسير الثعلبي ١٠/١٨٩، وتفسير البغوي ٨/٤١٠

٨٢٨٦٧- قال محمد بن السّائِب الكلبي: (أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) لأنّها تنهض بحمْلها وهي باركة، ولأنه ليس شيء مِن الحيوانات سابقها غيرها(٤). (ز)

تفسير الثعلبي ١٠/١٨٩، وتفسير البغوي ٨/٤١٠

٨٢٨٦٨- قال مقاتل بن سليمان: (أَفَلا يَنْظُرُونَ إلى الإبِلِ) لأنّ العرب لم يكونوا رأوا الفيل، وإنما ذكر لهم ما أبصروا، ولو أنه قال: أفلا ينظرون إلى الفِيَلة (كَيْفَ خُلِقَتْ) لم يتعجّبوا لها؛ لأنهم لم يَروها(٥)٧١٤٨. (ز)

٧١٤٨ نقل ابنُ عطية (٨/٦٠١) عن المبرد قوله: «الإبل هنا: السحاب؛ لأنّ العرب قد تسميها بذلك إذ تأتي أرسالًا كالإبل، وتُزْجى كما تُزْجى الإبل، وهي في هيئتها أحيانًا تشبه الإبل والنعام». واستشهد ببيت من الشعر: كأن السحاب دوين السماء نعام تعلق بالأرجل.

<u>آثار متعلقة بالآية</u>

٨٢٨٦٩- عن شريح [القاضي] -من طريق أبي إسحاق، عمَّن سمعه- أنه كان يقول لأصحابه: اخرجوا بنا إلى السوق فننظر إلى الإبل كيف خُلقتْ؟(٦). (١٥/٣٨٩)

(وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ (١٨) وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ (١٩)) [الغاشية ١٨-١٩]

*****

(وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ (١٨) وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ (١٩)

<u>تفسير</u>

٨٢٨٧٠- عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- قال: (وإلى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وإلى الجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)، قال: تصعد إلى الجبل الصَّيْخُود - (يقال

صخرة صيخود: شديدة لا تعمل فيها المعاول. التاج (صخد)) - عامة يومك، فإذا أفضيتَ إلى أعلاه أفضيتَ إلى عيون مُتفجِّرة، وأثمار متهدّلة، لم تغرسه الأيدي، ولم تعمله الناس، نعمة من الله، وبُلْغَة إلى أجل(٢). (١٥/٣٨٨)

٨٢٨٧١- قال مقاتل بن سليمان: (وإلى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ) من فوقهم خمسمائة عام، (وإلى الجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) على الأرض أوتادًا لِئلّا تزول بأهلها(٣). (ز)

*****

(وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ)

تفسير

٨٢٨٧٢- عن عبد الله بن عباس -من طريق عطاء- (وإلى الأرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ): هل يقدر أحد أن يَخلُق مثل الإبل، أو يرفع مثل السماء، أو ينصب مثل الجبال، أو يسطح مثل الأرض غيري؟!(١). (ز)

أخرجه البغوي ٨/٤١٠

٨٢٨٧٣- عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- قال: (وإلى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) أي: بُسطتْ. يقول: الذي خَلَق هذا قادر على أن يَخلُق في الجنة ما أراد(٢). (١٥/٣٨٨)

٨٢٨٧٤- قال مقاتل بن سليمان: (وإلى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)، يعني: كيف بُسطتْ مِن تحت الكعبة مسيرة خمسمائة عام(٣). (ز)

التفسير المحرر

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠)

غريب الكلمات:

نُصِبَتْ: أي: جُعِلَت مَنصوبةً قائمةً ثابتةً، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ وإهدافٍ في استِواءٍ .

سُطِحَتْ: أي بُسِطَت ومُدَّت، وأصلُ (سطح): يدُلُّ على بَسطِ الشَّيءِ ومَدِّه .

المعنى الإجمالي:

يقولُ تعالى آمِرًا عِبادَه بالنَّظرِ في مخلوقاتِه الدَّالَّةِ على قُدرتِه وعَظَمتِه: أفلَا يَنظُرُ النَّاسُ إلى الإبِلِ مُتفَكِّرينَ في كيفيَّةِ خَلْقِها على هذا النَّحوِ العَجيبِ؟ وإلى السَّماءِ كيف رُفِعَت هذا الارتِفاعَ العَظيمَ؟ وإلى الجِبالِ كيف أُقيمَت على هذه الهيئةِ الباهرةِ؟ وإلى الأرضِ كيف بَسَطَها اللهُ؛ لتَستَقِرَّ عليه المخلوقاتُ؟

تفسير الآيات:

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا ذكَر تعالى أمرَ القيامةِ، وانقسامَ أهلِها إلى أشقياءَ وسعداءَ، وعُلِم أنَّه لا سبيلَ إلى إثباتِ ذلك إلَّا بواسطةِ الخالقِ الحكيمِ؛ أتبَع ذلك بذكرِه هذه الدلائلِ، وذِكرِ ما العربُ مشاهدوه وملابسوه دائمًا .

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (10/463).

لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالَى الجنَّةَ بما وصَفَ، عَجِبَ الكفَّارُ مِن ذلك، فذكَّرَهم غَرائبَ صُنعِه .

يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: 608)، ويُنظر أيضًا ((تفسير الرسعني)) (8/600)

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17).

أي: أفلَا يَنظُرُ النَّاسُ إلى الإبِلِ مُتفَكِّرينَ في كيفيَّةِ خَلْقِها على هذا النَّحوِ العَجيبِ البَديعِ ؟

كما قال تعالى: وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ [النحل: 5 - 7] .

وقال سُبحانَه: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ [يس: 71 - 73] .

وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18).

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى السَّماءِ كذلك كيف رُفِعَت هذا الارتِفاعَ العَظيمَ ؟
كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا [الرعد: 2] .
وقال سُبحانَه: أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ [ق: 6] .

وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19).

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى الجِبالِ كيف أُقيمَت على هيئةٍ باهرةٍ؛ إذ هي مُنتَصِبةٌ جامِدةٌ ثابتةٌ لا تَبرَحُ مَكانَها ولا تَسقُطُ ؟

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20).

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى الأرضِ كيف بَسَطَها اللهُ، فجَعَل لها سَطحًا تَستَقِرُّ عليه المخلوقاتُ ؟
كما قال تعالى: وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ [الذاريات: 48].

<u>الفوائد التربوية:</u>

1- في قَولِه تعالى: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ إلى قَولِه: وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ توجيهُ الأنظارِ إلى تلك المذكوراتِ الأربَعةِ؛ لِما فيها مِن عَظيمِ الدَّلائِلِ على القُدرةِ وعلى البَعْثِ، ثمَّ الإقرارُ لله تعالى بالوَحدانيَّةِ والأُلوهيَّةِ؛ نَتيجةً لإثباتِ رُبوبيَّتِه تعالى لجَميعِ خَلْقِه .

2- في قَولِه تعالى: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ إلى قولِه: وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ حَثٌّ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ إلى النَّظَرِ فيها بعَينِ البَصَرِ وعَينِ البَصيرةِ؛ بعَينِ البَصَرِ الَّذي هو الإدراكُ الحِسِّيُّ، وبعَينِ البصيرةِ الَّتي هي الإدراكُ العَقليُّ؛ حتَّى نَستَدِلَّ بها على ما تدُلُّ عليه مِن آياتِ اللهِ مِن قُدرةٍ وعِلْمٍ، ورحمةٍ وحِكمةٍ وغيرِ ذلك . فالنَّظَرُ الدَّقيقُ والفِكرُ الدَّارِسُ مِمَّا قد يؤدِّي بصاحِبِه إلى الاستدلالِ على وُجودِ اللهِ تعالى وعلى قُدرتِه، كما نطق قُسُّ بنُ ساعِدةَ في الجاهليَّةِ في خُطبتِه المشهورةِ: «ليلٌ داجٍ ، ونهارٌ ساجٍ ، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، ونجومٌ تُزهِر، وبحارٌ تَزخَرُ، وجِبالٌ مُرْساةٌ، وأرضٌ مُدْحاةٌ، وأنهارٌ مُجْراةٌ» ؛ فقد ذكَرَ السَّماءَ والجِبالَ والأرضَ .

الفوائد العلمية واللطائف:

1- في قَولِه تعالى: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ إلى قَولِه: وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ سؤالٌ عن المناسَبةِ بيْنَ هذه الأشياءِ.

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّ القُرآنَ نَزَل على العَرَبِ، وكانوا يُسافِرونَ كثيرًا، وكانوا يَسيرون على الإبِلِ في المَهامِهِ والقِفارِ مُستَوحِشينَ مُنفَرِدينَ عن النَّاسِ، والإنسانُ إذا انفرد أقبَلَ على التَّفَكُّرِ في الأشياءِ؛ لأنَّه ليس معه مَن يُحادِثُه، وليس هناك مَن يَشغَلُ به سَمْعَه وبَصَرَه، فلا بُدَّ مِن أن يجعَلَ دَأْبَه الفِكرَ، فإذا فكَّرَ في تلك الحالِ فأوَّلُ ما يَقَعُ بَصَرُه على الجَمَلِ الَّذي هو راكِبُه؛ فيرى منظرًا عَجيبًا، وإن نظرَ إلى فَوقٍ لم يَرَ غَيرَ السَّماءِ، وإذا نظَرَ يمينًا وشِمالًا لم يَرَ غَيرَ الجبالِ، وإذا نظَرَ إلى تحتٍ لم يَرَ غيرَ الأرضِ؛ فكأنَّه

تعالى أمَرَه بالنَّظَرِ وَقتَ الخَلوةِ والانفرادِ؛ حتَّى لا تحمِلَه داعيةُ الكِبْرِ والحَسَدِ على تَرْكِ النَّظَرِ.

الثَّاني: أنَّ جميعَ المخلوقاتِ دالَّةٌ على الصَّانِعِ سُبحانَه إلَّا أنَّها قِسمانِ: منها ما للشَّهوةِ فيه حَظٌّ، كالوَجهِ الحَسَنِ، والذَّهَبِ والفِضَّةِ، فهذه مع دَلالتِها على الصَّانعِ قد يمنَعُ استِحْسانُها عن إكمالِ النَّظَرِ فيها، ومنها ما لا حَظَّ فيه للشَّهوةِ، كهذه الأشياءِ؛ فأَمَر بالنَّظَرِ فيها؛ إذ لا مانِعَ مِن إكمالِ النَّظَرِ . يُنظر: ((تفسير الرازي)) (31/145، 146)، ((تفسير ابن عادل)) (20/302).

الثَّالِثُ: أنَّ الإبِلَ كانت أنفَسَ أموالِهم وأكثَرَها، وإنَّما جَمَع بيْنَها وبيْن ما بَعْدَها؛ لأنَّهما جاءَا على وَفْقِ عادةِ العَرَبِ في انتفاعِهم بالإبِلِ أكثَرَ، ولا يَحصُلُ إلَّا بأن ترعى وتَشرَبَ، وذلك بنُزولِ المطَرِ مِنَ السَّماءِ؛ فعَطَفَها في الذِّكرِ على الإبِلِ، ثمَّ لا بُدَّ لهم مِن حِصنٍ يَتحَصَّنونَ به، ولا شَيءَ في ذلك لهم كالجِبالِ؛ فعَطَفَها على ما قَبْلَها، فإذا فَتَّش البَدَويُّ في نَفْسِه وجَدَ هذه الأشياءَ حاضِرةً عِندَه على التَّرتيبِ المذكورِ، بخلافِ الحَضَريِّ . يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: 609، 610).

الرَّابعُ: لَعلَّ الحِكمةَ في ذِكرِ هذه الأشياءِ التَّنبيهُ على أنَّ هذا الوجهَ مِن الاستدلالِ غيرُ مُختَصٍّ بنَوعٍ دونَ نَوعٍ، بلْ هو عامٌّ في الكلِّ على ما قال: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ [الإسراء: 44] ، ولو ذَكَرَ غيرَها لم يكُنِ الأمرُ كذلك، لا جَرَمَ ذَكَرَ اللهُ تعالَى هذه الأمورِ، تَنبيهًا على أنَّ جَميعَ

الأجسامِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ، صَغيرِها وكَبيرِها، حَسَنِها وقَبيحِها؛ مُتساويةٌ في الدَّلالةِ على الخالقِ الحَكيمِ . يُنظر: ((تفسير الرازي)) (31/144)

2- في قَولِه تعالى: وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ اعلَمْ أنَّ تَسطيحَها لا يُنافي أنَّها كُرةٌ مُستديرةٌ قد أحاطت الأفلاكُ بها مِن جميعِ جوانِبِها، كما دَلَّ على ذلك النَّقلُ والعَقلُ والحِسُّ والمشاهَدةُ، كما هو مَذكورٌ مَعروفٌ عندَ أكثَرِ النَّاسِ، خُصوصًا في هذه الأزمنةِ الَّتي وقف النَّاسُ على أكثَرِ أرجائِها بما أعطاهم اللهُ مِن الأسبابِ المقَرِّبةِ للبَعيدِ؛ فإنَّ التَّسطيحَ إنَّما يُنافي كُرَويَّةَ الجِسمِ الصَّغيرِ جِدًّا، الَّذي لو سُطِحَ لم يَبْقَ له استِدارةٌ تُذكَرُ، وأمَّا جِسمُ الأرضِ الَّذي هو في غايةِ الكِبَرِ والسَّعةِ فيكونُ كُرَويًّا مُسَطَّحًا، ولا يَتنافى الأمْرانِ، كما يَعرِفُ ذلك أربابُ الخِبرةِ،
– يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 922). قال ابنُ القَيِّمِ: (قال تعالى: وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ، ولا يُنافي ذلك كَونَها كُرويَّةً؛ فهي كُرةٌ في الحقيقةِ، لها سَطحٌ يَستَقِرُّ عليه الحيوانُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: 295). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (2/212). –
ولكِنْ مع هذا ذَكَروا أنَّها ليست كُرَويَّةً مُتساويةَ الأطرافِ، بل إنَّها مُنبَعِجةٌ نحوَ الشَّمالِ والجَنوبِ، فهم يقولون: إنَّها بَيضاويَّةٌ، أي: على شَكلِ البَيضةِ في انبعاجِها شَمالًا وجَنوبًا .
يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (12/663).

3- قال تعالى: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ إلى قولِه: وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ عقَّبَ به أمْرَ المعادِ، ورتَّبَ عليه الأمرَ بالتَّذكيرِ فقال: فَذَكِّرْ

إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ الآياتِ؛ لأنَّ المعنى: أفلا يَنظُرونَ إلى أنواعِ المخلوقاتِ مِن البسائطِ والمَرْكَباتِ ليَتحقَّقوا كَمالَ قُدرةِ الخالقِ سُبحانَه وتعالَى، فلا يُنكِروا اقتِدارَه على البَعثِ .

<u>بلاغة الآيات:</u>

- قولُه تعالَى: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ لَمَّا تَقدَّمَ التَّذكيرُ بيَومِ القِيامةِ، ووُصِفَ حالُ أهلِ الشَّقاءِ بما وُصِفوا به، وكان قد تَقرَّرَ فيما نزَلَ مِن القُرآنِ أنَّ أهلَ الشَّقاءِ هم أهلُ الإشراكِ باللهِ؛ فُرِّع على ذلك إنكارٌ عليهم إعراضَهُم عن النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ، فالفاءُ في قولِه: أَفَلَا يَنْظُرُونَ تَفريعُ التَّعليلِ على المُعلَّلِ؛ لأنَّ فَظاعةَ ذلك الوَعيدِ تَجعَلُ المقامَ مَقامَ استدلالٍ على أنَّهم مَحقوقون بوُجوبِ النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ الَّتي هي أصلُ الاهتداءِ إلى تَصديقِ ما أَخْبَرَهم به القرآنُ مِن البَعثِ والجزاءِ، وإلى الاهتداءِ إلى أنَّ مُنشِئَ النَّشأةِ الأُولى عن عدَمٍ بما فيها مِن عَظيمِ الموجوداتِ كالجِبالِ والسَّماءِ؛ لا يُستبعَدُ في جانبِ قُدرتِه إعادةُ إنشاءِ الإنسانِ بعْدَ فَنائِه عن عدَمٍ، وهو دُونَ تلك الموجوداتِ العظيمةِ الأحجامِ؛ فكان إعراضُهم عن النَّظَرِ مَجْلبةً لِما يُجَشِّمُهم مِن الشَّقاوةِ، وما وقَعَ بيْن هذا التَّفريعِ وبيْن المُفرَّعِ عنه مِن جُملةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ [الغاشية: 8] ؛ في مَوقعِ الاعتراضِ .

- قولُه: أَفَلَا يَنْظُرُونَ ... نظمُ الآياتِ مُتوافقٌ مع فاتحةِ السُّورةِ الكريمةِ، فالخِطابُ في قولِه: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ للعرَبِ، نبَّهَهم أوَّلًا بقولِه: هَلْ أَتَاكَ، وفخَّم المُستفهَمَ منه وعظَّمَه؛ إذِ المعنى: تَنبَّهوا لهذا الأمرِ الخطيرِ، والخطْبِ الجَسيمِ، وهُبُّوا مِن رَقدةِ الغَفلةِ، فخوَّفَهم بالصَّلَى في النَّارِ،

وبإطعامِ الضَّريعِ، ولَمَّا كان الضَّريعُ حَديثًا مُناسِبًا للإبلِ -وهو جِنسٌ مِن الشَّوكِ تَرعاهُ الإبلُ ما دامَ رَطْبًا- وأراد أنْ يُقرِّرَ ذلك، أتَى تنبيهٌ آخَرُ على سَبيلِ النَّظرِ؛ ليَضُمَّ شاهدَ العقلِ مع شاهدِ النَّصِّ، وأَسَّسَ الدَّلائلَ والشَّواهدَ على حسَبِ ما أَلِفوه في بَواديهم وأوديتِهم، وعدَلَ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ تَوبيخًا لهم، وتَنبيهًا على مَظانِّ الافتكارِ، فقال: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ إلى آخِره .

- والهَمزةُ في أَفَلَا يَنْظُرُونَ ... للاستفهامِ التَّوبيخيِّ الإنكاريِّ، إنكارًا عليهم إهمالَ النَّظَرِ في الحالِ إلى دَقائقِ صُنعِ اللهِ في بَعضِ مَخلوقاتِه .

- والنَّظَرُ هنا هو نظَرُ العَينِ المُفيدُ الاعتبارَ بدَقائقِ المَنظورِ، وتَعديتُه بحرْفِ (إلى) تَنبيهٌ على إمعانِ النَّظَرِ؛ ليَشعُرَ النَّاظرُ ما في المَنظورِ مِن الدَّقائقِ؛ فإنَّ قَولَهم: نظَرَ إلى كذا، أشدُّ في تَوجيهِ النَّظرِ مِن: نَظَرَ كذا؛ لِما في (إلى) مِن معْنى الانتهاءِ، حتى كأنَّ النظَرَ انْتهى عندَ المجرورِ بـ (إلى) انتهاءَ تَمكُّنٍ واستقرارٍ .

- ولزِيادةِ التَّنبيهِ على إنكارِ إهمالِ النَّظَرِ في الحالِ إلى دَقائقِ صُنعِ اللهِ في بَعضِ مَخلوقاتِه؛ قُيِّدَ فِعلُ يَنْظُرُونَ بالكَيفيَّاتِ المعدودةِ في قولِه: كَيْفَ خُلِقَتْ، كَيْفَ رُفِعَتْ، كَيْفَ نُصِبَتْ، كَيْفَ سُطِحَتْ، أي: لمْ يَنظُروا إلى دَقائقِ هَيئاتِ خَلْقِها .

- ووَجهُ ذِكْرِ الإبِلِ خاصَّةً: أنَّ الإبِلَ أجمَعُ للمَنافِعِ مِن سائِرِ الحَيوانِ؛ لأنَّ ضُروبَه أربَعةٌ: حَلُوبةٌ، ورَكوبةٌ، وأَكولةٌ، وحَمولةٌ، والإبِلُ تجمَعُ هذه الخِلالَ الأربَعَ؛ فكانت النِّعمةُ بها أعَمَّ، وظُهورُ القُدرةِ بها أتَمَّ . فخُصَّتِ الإبلُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه اجتَمَعَ فيها ما تَفرَّقَ مِن المنافعِ في غَيرِها؛ مِن أكْلِ لَحمِها، وشُربِ لَبنِها، والحمْلِ عليها، والتَّنقُّلِ عليها إلى البلادِ الشَّاسِعةِ،

وعَيشِها بأيِّ نَباتٍ أكَلَتْه، وصَبْرِها على العطَشِ، حتَّى إنَّ فيها ما يَرِدُ الماءَ لعَشْرٍ، وطَواعيتِها لِمَن يَقودُها، ونَهضتِها وهي باركةٌ بالأحمالِ الثِّقالِ، وكَثرةِ حَنينِها، وتأثُّرِها بالصَّوتِ الحسَنِ على غِلَظِ أكْبادِها؛ فهي أشرَفُ المَركَباتِ وأكثَرُها صُنعًا، ولأنَّها أعجَبُ ما عندَ العرَبِ مِن هذا النَّوعِ .

- وإنَّما لم يَذكُرِ الفِيلَ وغيرَه ممَّا هو أعظَمُ مِن الجمَلِ؛ لأنَّ العرَبَ لم يَرَوا شَيئًا مِن ذلك ولا عَرَفوه .

- وبُنِيَت الأفعالُ الأربعةُ خُلِقَتْ رُفِعَتْ نُصِبَتْ سُطِحَتْ لِمَا لمْ يُسَمَّ فاعلُه؛ للعِلمِ بفاعِلِ ذلك .

ثم قال تعالى:

(فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ٢٦)

التفسير المأثور

(فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ٢٢)

قراءات

٨٢٨٧٥- عن جابر، قال: قرأ رسول الله ﷺ: (لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) بالصاد(١). (١٥/٣٨٩)

أخرجه الحاكم ٢/٢٧٩ (٣٠٠٧).

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». وقال الذهبي في التلخيص: «على شرط مسلم».

وهي قراءة متواترة، قرأ بها العشرة، ما عدا هشامًا فإنه قرأ: ‹بِمُسَيْطِرٍ› بالسين، وما عدا قنبلًا وابن ذكوان وحفصًا وخلادًا الأربعة كلهم في رواية. انظر: النشر ٢/٣٧٨، والإتحاف ص٥٨٢.

تفسير الآية

٨٢٨٧٦- عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أنْ أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مِنِّي دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابهم على الله». ثم قرأ: (فَذَكِّرْ إنَّما أنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)(٢). (١٥/٣٨٩)

٨٢٨٧٧- عن عبد الله بن عباس -من طريق علي- في قوله: (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)، يقول: بجبّار، فاعفُ عنهم واصفح(٣). (١٥/٣٨٩)

٨٢٨٧٨- عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)، قال: جبّار(٤). (١٥/٣٩٠)

٨٢٨٧٩- عن الضَّحّاك بن مُزاحِم، (بِمُصَيْطِرٍ)، قال: بمُسلَّط(٥). (١٥/٣٩٠)

٨٢٨٨٠- عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)، قال: بقاهر(٦). (١٥/٣٩٠)

٨٢٨٨١- عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)، قال: كِلْ عبادي إلَيَّ(٧). (١٥/٣٩٠)

٨٢٨٨٢- قال مقاتل بن سليمان: (فَذَكِّرْ) أهل مكة، يا محمد (إنَّما أنْتَ مُذَكِّرٌ) كالذين من قبلك، (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) يقول: لستَ عليهم بملِك(٨). (ز)

٨٢٨٨٣- قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- في قوله: (إنَّما أنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)، قال: لستَ عليهم بمُسلَّط أن تُكرههم على الإيمان(٩). (ز)

النسخ في الآية

٨٢٨٨٤- عن عبد الله بن عباس، (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)، قال: نسَخ ذلك، فقال: (اقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وجَدْتُمُوهُمْ) [التوبة:٥](١٠). (١٥/٣٩٠)

عزاه السيوطي إلى أبي داود في ناسخه. وينظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي ص٥٠٧

٨٢٨٨٥- قال مقاتل بن سليمان: (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)، يقول: لستَ عليهم بملِك، ثم نَسَخَتْها آيةُ السيف في براءة(١١). (ز)

٨٢٨٨٦- قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- في قوله: (إنَّما أنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)، قال: لستَ عليهم بمُسلَّط أن تُكرههم على الإيمان. قال: ثم جاء بعد هذا: (جاهِدِ الكُفّارَ والمُنافِقِينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ) [التوبة:٧٣، والتحريم:٩]، وقال: (واقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) وارصدوهم لا يخرجوا في البلاد، (فَإنْ تابُوا وأَقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [التوبة:٥]. قال: فنَسَخَتْ (لَسْتَ عَلَيْهِمْ

بِمُصَيْطِرٍ). قال: جاء اقتله أو يُسلِم. قال: والتذكرة كما هي لم تُنسخ. وقرأ: (وذَكِّرْ فَإنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ) [الذاريات:٥٥](١٢)٧١٤٩. (ز)

٧١٤٩ ذكر ابنُ عطية (٨/٦٠٢) اختلاف المفسرين في قوله تعالى: (إلا مَن تَوَلّى وكَفَرَ) على قولين: الأول: «أنّ الاستثناء متصل، والمعنى: إلا مَن تولى وكفر فأنت مُسيطِرٌ عليه». ثم وجَّهه بقوله: «فالآية -على هذا- لا نسخ فيها». الثاني: «أن الاستثناء منفصل، والمعنى: (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ)، وتمَّ الكلام، وهي آية موادعة منسوخة بالسيف، ثم قال تعالى: (إلّا مَن تَوَلّى وكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ)». ثم رجَّحه مستندًا إلى أحوال النزول، فقال: «وهذا هو القول الصحيح؛ لأن السورة مكّيّة، والقتال إنما نزل بالمدينة».

****

(إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ (٢٤)

قراءات

٨٢٨٨٧- في قراءة عبد الله بن مسعود: (فَإنَّهُ يُعَذِّبُهُ اللهُ العَذابَ الأَكْبَرَ)(١). (ز)

أخرجه ابن أبي داود في المصاحف ١/٣٣٨.

وهي قراءة شاذة. انظر: المحرر الوجيز ٥/٤٧٥، والجامع لأحكام القرآن ٢٢/٢٥٤.

تفسير الآية

٨٢٨٨٨- عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- (إلّا مَن تَوَلّى وكَفَرَ)، قال: حسابه على الله(٢). (١٥/٣٩٠)

٨٢٨٨٩- قال مقاتل بن سليمان: (إلّا مَن تَوَلّى) يعني: أعرَض، (وكَفَرَ) بالإيمان، (فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ) في الآخرة (العَذابَ الأَكْبَرَ) وإنما سمّاه الله الأكبر لأنّ الله كان أوعدهم القتل والجوع في الدنيا، فقال الأكبر؛ لأنه أكبر من الجوع والقتل، وهو عذاب جهنم(٣). (ز)

****

(إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦)

تفسير

٨٢٨٩٠- عن عبد الله بن عباس -من طريق ابن جُرَيْج، عن عطاء الخُراسانيّ- في قوله: (إنَّ إلَيْنا إيابَهُمْ)، قال: مرجعهم(١). (١٥/٣٩٠)

٨٢٨٩١- عن عطاء، مثله(٢). (١٥/٣٩١)

٨٢٨٩٢- عن عبد الله بن عباس، أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبِرني عن قوله □: (إنَّ إلَيْنا إيابَهُمْ). قال: الإياب: المرجع. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عَبيد بن الأَبْرص يقول:

وكلّ ذي غَيْبة يؤوب ......وغائب الموت لا يؤوب

وقال الآخر:

فألَقتْ عصاها واستقرّ بها النَّوى....... كما قرّ عَينًا بالإياب المسافر(٣). (١٥/٣٩١)

٨٢٨٩٣- عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- (إنَّ إلَيْنا إيابَهُمْ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ)، قال: إلى الله الإياب، وعلى الله الحساب(٤). (١٥/٣٩١)

٨٢٨٩٤- عن إسماعيل السُّدِّيّ، (إنَّ إلَيْنا إيابَهُمْ)، قال: مُنقَلَبهم(٥). (١٥/٣٩١)

٨٢٨٩٥- قال إسماعيل السُّدِّيّ: (ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ)، يعني: جزاءهم(٦). (ز)

٨٢٨٩٦- قال مقاتل بن سليمان: (إنَّ إلَيْنا إيابَهُمْ) يعني: مصيرهم، (ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ) يعني: جزاءهم على الله هَيِّن(٧). (ز).

التفسير المحرر

(فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّر ٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ٢٦)

غريب الكلمات:

بِمُسَيْطِرٍ: أي: بمُسَلَّطٍ قاهِرٍ، والمُصَيْطِرُ: المُجْبِرُ المُكْرِهُ. وقيل: أي: قائمٍ وحافظٍ، والمُسَيْطِرُ هو المُتَعهِّدُ للشَّيءِ المُتَسلِّطُ عليه، يُقالُ: صَيْطَر وسَيْطَر بالصَّادِ والسِّينِ .

تَوَلَّى: أي: أعرَضَ، والتَّولِّي إذا وُصِلَ بـ (عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ .

إِيَابَهُمْ: أي: رُجوعَهم بعدَ الموتِ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ .

المعنى الإجمالي:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بدَوامِ التَّذكيرِ، فيقولُ: فذَكِّرِ النَّاسَ -يا محمَّدُ- بآياتِ اللهِ تعالى، وعِظْهُم بها؛ فما أرسَلْتُك إليهم إلَّا لتَذكيرِهم، ولَسْتَ مُتسَلِّطًا على النَّاسِ ولا قاهِرًا لهم؛ فتُكرِهَهم على الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، لكِنْ مَن أعرَضَ عن الحَقِّ وكَفَر بعدَ تذكيرِه بآياتِ اللهِ تعالى، فيُعَذِّبُه اللهُ في الآخِرةِ عذابَ النَّارِ الأكبَرَ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ فيقولُ: إنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم بعْدَ مَوتِهم، ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهم يومَ القيامةِ على أعمالِهم، وسنُجازيهم بها.

تفسير الآيات:

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن الدَّلائِلَ على صِحَّةِ التَّوحيدِ والمَعادِ، قال لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، وتذكيرُ الرَّسولِ إنَّما يكونُ بذِكرِ هذه الأدِلَّةِ وأمثالِها، والبَعْثِ على النَّظَرِ فيها، والتَّحذيرِ مِن تَرْكِ تلك، وذلك بَعْثٌ منه تعالى للرَّسولِ على التَّذكيرِ والصَّبرِ على كُلِّ عارِضٍ معه؛ وبيانُ أنَّه إنَّما بُعِثَ لذلك دونَ غَيرِه؛ فلهذا قال :

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21).

أي: فذَكِّرِ النَّاسَ -يا محَمَّدُ- بآياتِ اللهِ تعالى، وعِظْهُم بها؛ فما أرسَلْتُك إليهم إلَّا لتَذكيرِهم .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/340)، ((الوسيط)) للواحدي (4/477)، ((تفسير القرطبي)) (20/37)، ((تفسير ابن كثير)) (8/388)، ((تفسير السعدي)) (ص: 923)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 181). قال البِقاعي: (فَذَكِّرْ كُلَّ مَن يُرجَى تذَكُّرُه وانتِفاعُه بالتَّذكيرِ -يا أشرَفَ خَلْقِنا- بما في غرائِزِهم وفِطَرِهم مِن العِلمِ الأوَّليِّ بما في هذه الأشياءِ وأمثالِها ممَّا يدُلُّ على صِحَّةِ ما نزَّلْنا عليك). ((نظم الدرر)) (22/18).

كما قال تعالى: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآَنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ [ق: 45] .
وقال عزَّ وجَلَّ: وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ [الذاريات: 55].

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22).

<u>النَّاسِخُ والمَنسوخُ:</u>

الآيةُ مُحكَمةٌ غَيرُ مَنسوخةٍ .

وهذا ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، وابنِ كثير، ورجَّحه محمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/340)، ((تفسير ابن كثير)) (8/388)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (7/418)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/307). وقال ابن الجوزي: (وقد قال بعضُ المفسِّرينَ في معناها: لَسْتَ عليهم بمُسَلَّطٍ فتُكرِهَهم على الإيمانِ. فعلى هذا لا نَسْخَ). ((نواسخ القرآن)) (2/625).

وقيل: هي مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ، وهي قَولُه تعالى: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ... [التوبة: 5]
ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وهبةُ الله بنُ سلامة، وابنُ حزم، والقرطبيُّ، وقد عزا الواحديُّ القولَ بالنَّسخِ إلى جميعِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (4/679)، ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: 197)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: 65)، ((البسيط)) للواحدي (23/476)، ((تفسير القرطبي)) (20/37).

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22).
أي: لم تُبعَثْ -يا محَمَّدُ- مُتسَلِّطًا على النَّاسِ وقاهِرًا لهم؛ فتُكرِهَهم على الإيمانِ باللهِ وطاعتِه .
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/340)، ((تفسير ابن كثير)) (8/388)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (1/236)، ((تفسير السعدي)) (ص: 923). قال ابنُ القَيِّم: (قال المفسِّرون: المعنى: أنَّك لم تُرسَلْ مُسَلَّطًا عليهم قاهِرًا لهم جبَّارًا كالملوكِ، بل أنت عبدي ورسولي المبَلِّغُ رِسالاتي؛ فمَن أطاعك فله الجنَّةُ، ومَن عصاك فله النَّارُ). ((بدائع الفوائد)) (3/69).

كما قال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [البقرة: 272]
.
وقال سُبحانَه: إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ [الزمر: 41] .

وقال عزَّ وجَلَّ: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ [الشورى: 48] .

وقال تبارك وتعالى: وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ [ق: 45] .

إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفى عنهم تسَلُّطَ الدُّنيا، وكان التَّقديرُ: فمَنْ أقْبَلَ وآمَنَ فإنَّ اللهَ يُنَعِّمُه النَّعيمَ الأكبَرَ؛ قال مُستَدرِكًا قَسيمَهم في صورةِ الاستثناءِ :

إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23).

أي: إلَّا مَن أعرَضَ عن الحَقِّ وكَفَر بعدَ تذكيرِه بآياتِ اللهِ تعالى .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/342)، ((الوسيط)) للواحدي (4/477)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (3/65)، ((تفسير ابن كثير)) (8/389)، ((تفسير السعدي)) (ص: 923)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 182، 183). قيل: الاستثناءُ هنا متَّصِلٌ. والمعنى: فذكِّرْ قَومَك -يا محمَّدُ- إلَّا مَن تولَّى منهم عنك، وأعرَض عن آياتِ اللهِ؛ فكفَر. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/342). وقيل: المعنى: لَسْتَ بمُسَلَّطٍ إلَّا على مَن تولَّى وكَفَر؛ فأنت مُسَلَّطٌ عليه بالجِهادِ، واللهُ يُعَذِّبُه بعدَ ذلك العذابَ الأكبَرَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (20/37). قال القرطبي: (فلا نَسْخَ في الآيةِ على هذا التَّقديرِ). ((المصدر السابق)). وقيل: الاستثناءُ هنا مُنقَطِعٌ بمعنى: «لكِنْ». ومِمَّن ذهب إليه: الواحديُّ، والقرطبي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (4/477)، ((تفسير القرطبي))

(20/37)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/308)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 182). ويُنظر أيضًا: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (3/65). قال القرطبي: (إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ استثناءٌ مُنقطِعٌ، أي: لكِنْ مَن تولَّى عن الوَعظِ والتَّذكيرِ). ((تفسير القرطبي)) (20/37).

فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24).

أي: فيُعَذِّبُه اللهُ في الآخِرةِ على كُفْرِه وإعراضِه عذابَ النَّارِ الَّذي لا عذابَ أعظَمُ منه .

كما قال تعالى: وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى [طه: 127] .

وقال سُبحانَه وتعالى: وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [السجدة: 21] .

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25).

أي: إنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم بعْدَ مَوتِهم .

كما قال سبحانه وتعالى: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [المائدة: 105] .

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26).

أي: ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهم يومَ القيامةِ على أعمالِهم، وسنُجازيهم بها .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/343)، ((الوسيط)) للواحدي (4/477)، ((تفسير ابن كثير)) (8/389). قال ابن عاشور: (أي: لسْتَ

مُكَلَّفًا بجَبْرِهم على التَّذَكُّرِ والإيمانِ؛ لأنَّا نُحاسِبُهم حينَ رُجوعِهم إلينا في دارِ البقاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (30/308).

قال تعالى: فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ [الرعد: 40] .

الفوائد التربوية:

1- في قَولِه تعالى: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ أنَّ مِنَ الجَهَلةِ مَن يضَعُ قَولَه تعالى هذا في غيرِ مَوضِعِه، ويَحيدُ به عن مَهْيَعِه، فيُريدُ أن يتَّخِذَه حُجَّةً على حُرِّيَّةِ التَّدَيُّنِ بيْن جماعاتِ المسلِمينَ! وشتَّانَ بيْن أحوالِ أهلِ الشِّركِ وأحوالِ جامِعةِ المسلِمينَ؛ فمَن يُلحِدُ في الإسلامِ بعْدَ الدُّخولِ فيه يُستتابُ ثلاثًا، فإنْ لم يَتُبْ قُتِلَ، وإنْ لم يُقْدَرْ عليه فعلى المسلِمينَ أن يَنبِذُوه مِن جامِعَتِهم، ويُعامِلوه مُعاملةَ المحارِبِ، وكذلك مَن جاء بقَولٍ أو عمَلٍ يَقتضي نَبْذَ الإسلامِ، أو إنكارَ ما هو مِن أُصولِ الدِّينِ بالضَّرورةِ، بعدَ أن يُوقَفَ على مآلِ قَولِه أو عَمَلِه، فيَلتَزِمُه ولا يتأوَّلُه بتأويلٍ مقبولٍ، ويأبى الانكِفافَ .

2- في قَولِه تعالى: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ أنَّ الدَّاعيَ إلى اللهِ لا يَنبغي أنْ يَحزَنَ إذا لم تُقْبَلْ دعوتُه، فإذا أدَّى ما يجبُ عليه فقد بَرِئَتِ الذِّمَّةُ، والحِسابُ على اللهِ تعالى؛ فقَولُه تعالى: إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ يعني: لكِنْ مَن تولَّى وكَفَرَ -على قولٍ- فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ، فلا تحزَنْ أيُّها الدَّاعي إلى اللهِ إذا رُدَّ قولُك، أو إذا لم يُقْبَلْ لأوَّلِ مرَّةٍ؛ لأنَّك أدَّيتَ ما يجِبُ عليك . يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: 131)

3- في قَولِه تعالى: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ أنَّ الرُّجوعَ هو إلى اللهِ تعالى، فمهما فَرَّ الإنسانُ، وطالتْ به حياةٌ فإنَّه راجعٌ إلى اللهِ؛ ولهذا قال تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ [الانشقاق: 6] ؛ فاستَعِدَّ يا أخي لهذه المُلاقاةِ، وقد قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ((ما مِنكم مِن أحدٍ إلَّا سيُكَلِّمُه ربُّه ليس بيْنَه وبيْنه تَرْجُمانٌ، فيَنظُرُ أيْمَنَ منه فلا يرى إلَّا ما قَدَّمَ مِن عمَلِه، ويَنظُرُ أشْأَمَ منه -يعني: على اليَسارِ- فلا يرى إلَّا ما قَدَّمَ، وينظُرُ بيْنَ يديه فلا يرَى إلَّا النَّارَ تِلْقاءَ وجْهِه؛ فاتَّقوا النَّارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ)) ، واللهُ عزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ يُقَرِّرُ العبدَ بذُنوبِه، يقولُ: فعَلْتَ كذا في يومِ كذا، حتَّى يُقِرَّ ويَعترِفَ، فإذا أَقَرَّ واعترفَ قال اللهُ تعالى: ((ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ)) ، وكم مِن ذُنوبٍ سَتَرَها اللهُ عزَّ وجَلَّ! كم مِن ذُنوبٍ اقتَرَفْناها لم يَعلَمْ بها أحدٌ، ولكنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ بها! فمَوقِفُنا مِن هذه الذُّنوبِ أنْ نستغفِرَ اللهَ عزَّ وجَلَّ، وأنْ نُكْثِرَ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ المكفِّرةِ للسَّيِّئاتِ؛ حتَّى نلقى اللهَ عزَّ وجَلَّ ونحن على ما يُرْضيه سُبحانَه وتعالى .

<u>الفوائد العلمية واللطائف</u>:

1- قال الله عزَّ وجَلَّ: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ في قَولِه تعالى: فَذَكِّرْ لم يَخْصُصِ اللهُ أحدًا بالتَّذكيرِ، أي: لم يَقُلْ: ذَكِّرْ فُلانًا وفُلانًا، فالتَّذكيرُ عامٌّ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بُعِثَ إلى النَّاسِ كافَّةً، أي: ذَكِّرْ كلَّ أحدٍ في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ مكانٍ؛ فذَكَّرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذَكَّرَ خُلَفاؤُه مِن بَعْدِه؛ الَّذين خَلَفُوه في أُمَّتِه في العِلمِ والعَمَلِ والدَّعوةِ .

2- في قَولِه تعالى: إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس إلَّا مُذَكِّرًا مُبَلِّغًا، وأمَّا الهدايةُ فبِيَدِ اللهِ تعالى؛ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [البقرة: 272] .

يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: 61).

بلاغة الآيات:

1- قولُه تعالَى: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ

- الفاءُ في فَذَكِّرْ تفريعٌ على مُحصَّلِ ما سبَقَ مِن أوَّلِ السُّورةِ الَّذي هو التَّذكيرُ بالغاشيةِ وما اتَّصَلَ به مِن ذِكرِ إعراضِهم وإنذارِهم، رُتِّبَ على ذلك أمْرُ اللهِ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالدَّوامِ على تَذكيرِهم، وأنَّه لا يُؤيسُه إصرارُهم على الإعراضِ وعدَمُ ادِّكارِهم بما أُلْقى إليهم مِن المواعظِ، وتَثبيتُه بأنَّه لا تَبِعةَ عليه مِن عدَمِ إصغائِهم؛ إذْ لم يُبعَثْ مُلجِئًا لهم على الإيمانِ، فالأمرُ مُستعمَلٌ في طلَبِ الاستمرارِ والدَّوامِ .

- ومَفعولُ (ذكِّرْ) مَحذوفٌ، هو ضَميرٌ يدُلُّ عليه قولُه بعْدَه: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ .

- وجُملةُ إِنَّمَا أَنْتَ تَعليليَّةٌ للأمْرِ بالدَّوامِ على التَّذكيرِ مع عدَمِ إصغائِهم .

- والقصْرُ المُستفادُ بـ إِنَّمَا قصْرٌ إضافيٌّ ، أي: أنت مُذكِّرٌ لستَ وَكيلًا على تَحصيلِ تَذَكُّرِهم، فلا تَتحرَّجْ مِن عدَمِ تَذكُّرِهم؛ فأنت غيرُ مُقصِّرٍ في تَذكيرِهم، وهذا تَطمينٌ لنفْسِه الزَّكيَّةِ صلَّى الله عليه وسلَّم .

- قولُه: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ تَقريرٌ وتَحقيقٌ لمَعْنى الإنذارِ، أي: لستَ بمُتسَلِّطٍ عليهم تُجبِرُهم على ما تُريدُ ؛ فهذه الجُملةُ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ القصْرِ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ باعتبارِ جانبِ النَّفْيِ الَّذي

يُفيدُه القصرُ، فنفْيُ كَونِه مُصَيطِرًا عليهم خبَرٌ مُستعمَلٌ في غيرِ الإخبارِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعلَمُ أنَّه لم يُكلَّفْ بإكراهِهِم على الإيمانِ، فالخبَرُ بهذا النَّفيِ مُستعمَلٌ كِنايةً عن التَّطمينِ برَفْعِ التَّبِعةِ عنه مِن جرَّاءِ استمرارِ أكثَرِهم على الكُفرِ .

- وتَقديمُ عَلَيْهِمْ على مُتعلَّقِه -وهو (مُصَيْطِرٍ)-؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ .

2- قولُه تعالَى: إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ مُعترِضٌ بيْن جُملةِ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ وجُملةِ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ [الغاشية: 25] ، والمقصودُ مِن هذا الاعتراضِ الاحتراسُ مِن تَوهُّمِهم أنَّهم أصْبَحوا آمِنينَ مِن المُؤاخَذةِ على عدَمِ التَّذكُّرِ؛ فحرْفُ (إلَّا) للاستثناءِ المنقطِعِ -على قولٍ-، وهو بمعْنى الاستِدراكِ، والمعْنى: لكنْ مَن تَولَّى عن التَّذكُّرِ ودامَ على كُفْرِه، يُعذِّبُه اللهُ العذابَ الشَّديدَ .

- وعلى القولِ بأنَّ الاستثناءَ في قولِه: إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ استِثناءٌ مُتَّصلٌ؛ فإنَّ جِهادَ الكفَّارِ وقتْلَهم تَسلُّطٌ، كأنَّه قِيل: لستَ عليهم بمُسيطِرٍ -أي: بمُتسلِطٍ- بالقتْلِ والجِهادِ إلَّا مَن تولَّى وكَفَرَ، كأنَّه أوعَدَهم بالجهادِ في الدُّنيا، وعَذابِ النَّارِ في الآخرةِ. وقيل: هو استِثناءٌ مِن قولِه: فَذَكِّرْ، أي: فذَكِّرْ إلَّا مَن انقَطَعَ طَمَعُك مِن إيمانِه وتَولَّى، فاستحَقَّ العَذابَ الأكبَرَ، وما بيْنَهما إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ اعتراضٌ .

- في قولِه: الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ لم يَذْكُرِ المفضَّلَ عليه، يعني: لم يَقُلْ: الأكبرَ مِن كذا؛ فهو قد بَلَغ الغايةَ في الكِبَرِ والمشَقَّةِ والإهانةِ .

3- قولُه تعالَى: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ

- قولُه: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ تَعليلٌ للعذابِ الأكبَرِ؛ أي: إنَّ إلينا رجوعَهُم بالموتِ والبَعثِ لا إلى أحدٍ سِوانا؛ لا استقلالًا ولا اشتِراكًا . وقيل: هو تَعليلٌ لجُملةِ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ [الغاشية: 22] ، أي: لسْتَ مُكلَّفًا بجَبْرِهم على التَّذكُّرِ والإيمانِ؛ لأنَّا نُحاسِبُهم حِينَ رُجوعِهم إلينا في دارِ البَقاءِ .

- والسِّرُّ في تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ؛ التَّشديدُ والمُبالَغةُ في الوعيدِ، وأنَّ إيابَهم ليس إلَّا إلى الجَبَّارِ المُقتدِرِ على الانتقامِ، وأنَّ حِسابَهم ليس إلَّا عليه تعالى، وهو الَّذي يُحاسِبُ على النَّقيرِ والقِطْميرِ، وبَيانُ ذلك أنَّه تعالَى علَّل قولَه: فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ بقولِه: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، والْتَفَتَ فيه مِن الغَيبةِ إلى الحِكايةِ، ومِن الاسمِ الجامعِ إلى صِيغةِ الكِبرياءِ والجَبَروتِ، وقدَّمَ الظَّرفينِ على عامِلَيْهما .

وقيل: يَظهَرُ أنَّ تَقديمَ خبَرِ (إنَّ) على اسْمِها لمُجرَّدِ الاهتمامِ تَحقيقًا لهذا الرُّجوعِ؛ لأنَّهم يُنكِرونه، وتَنبيهًا على إمكانِه بأنَّه رُجوعٌ إلى الَّذي أنشَأَهم أوَّلَ مرَّةٍ .

- وجاء الخبَرُ مُؤكَّدًا بـ (إنَّ)، كأنَّهم وقد تَردَّدوا بحاجةٍ إلى تَأكيدِ هذا الأمرِ الَّذي أشاحُوا عنه ولم يَتدبَّروه .

- ونُقِلَ الكلامُ مِن أسلوبِ الغَيبةِ في قولِه: فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ [الغاشية: 24] إلى أُسلوبِ التَّكلُّمِ بقولِه: إِلَيْنَا على طَريقةِ الالْتفاتِ .

- والعطفُ بحرْفِ (ثُمَّ) في قولِه: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ للدَّلالةِ على التَّراخي في الرُّتبةِ لا في الزَّمانِ؛ فإنَّ حِسابَهم هو الغرَضُ مِن إيابِهم، وهو أوقَعُ في تَهديدِهم على التَّولِّي، فالحسابُ قدْ يكونُ مُباشَرةً بعدَ الإيابِ، ولكنَّ التَّفاوُتَ بيْن الموقفَينِ أمرٌ لا تُكْتَنَهُ أهوالُه، ولا يَدْري أحدٌ مَداهُ، ولا يَتصَوَّرُه العقلُ على الإطلاقِ .

- ومعْنى (على) مِن قولِه: عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ أنَّ حِسابَهم -لتَأكُّدِه في حِكمةِ اللهِ- يُشبِهُ الحقَّ الَّذي فَرَضَه اللهُ على نفْسِه .

- وأيضًا هذه الجُملةُ: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ هي المقصودُ مِن التَّعليلِ، والَّتي قبْلَها بمعْنَى التَّمهيدِ لها والإدماجِ لإثباتِ البَعثِ، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ تَأخيرَ عِقابِهم إمهالٌ، فلا يَحسَبوه انفلاتًا مِن العِقابِ .

- وفي تَصديرِ الجُملتَينِ بـ (إنَّ) وتَقديمِ خبَرِها، وعطْفِ الثَّانيةِ على الأُولى بكلمةِ (ثُمَّ) المفيدةِ لبُعدِ مَنزلةِ الحِسابِ في الشِّدَّةِ؛ مِن الإنباءِ عن غايةِ السَّخطِ الموجِبِ لتَشديدِ العَذابِ ما لا يَخفَى .